



المشهد السوري بعد دير الزور: تحدي الوجود بين الدولة والنصرة والثورة



أحمد أبازيد – كاتب وباحث سوري

2014\7\25



المحتويات

2	أولاً: مقدمة
4	ثانياً: سقوط الجزيرة المنسية
10	ثالثاً: من الفرع إلى الدولة إلى الخلافة
21	رابعاً: من جهات النصرة إلى الإمارة
29	خامساً: الثورة السورية في ميدان مرتكب
35	سادساً: المآلات الصعبة
38	سابعاً: خاتمة



أولاً: مقدمة

في رمزية نرجو ألا يكون قد قصدها التاريخ، تزامنت سيطرة تنظيم دولة العراق والشام على ريف دير الزور في يوم 3 تموز 2014، مع الذكرى الأولى للحدث الأكبر في الثورة العربية المضادة، كما تمثل في الانقلاب المصري.

قبل هذه السيطرة، كانت ثمة إرهادات توحى بتوجه الأمور بشكل متتابع نحو هذا المآل التراجيدي، الموازي لسيطرة التنظيم على الطرف الآخر من الحدود في الموصل وصلاح الدين وأجزاء من الأنبار، منذ العاشر من حزيران الراهن (الذي يوافق ذكرى سقوط الجولان). وبينما يمكن قطع حوالي 700 كم متصلة من مدن وبلدات تحت سيطرة التنظيم بين العراق وسوريا، إلا أن هذه السيطرة ليست على ذات المستوى من الصلابة والتحكم؛ إذ تشمل مناطق عمليات، ومناطق استقرار وتحكم كامل، ومناطق متروكة لإدارة محلية تتبع التنظيم، بحكم عدم كفاية عناصر التنظيم لحماية هذه المنطقة الجغرافية الشاسعة، ما يدفعه للتتوسيع بأخذ البيعات وضم فصائل جديدة، ما يتبع له فائض القوة والمال الذي وفرته الموارد النفطية في سوريا، حيث يسيطر التنظيم على معظم موارد سوريا النفطية، وكذلك على معظم الموارد المائية والزراعية الموجودة في المنطقة الشرقية.

في الجانب المقابل، تعرضت جبهة النصرة لأكبر صدمة منذ نشأتها بخسارة دير الزور؛ حيث ثقلها البشري الأهم ومواردها المالية الرئيسة، وتصدع البيت الداخلي فيما يشبه تفككًا أدى إليه اللامركزية الإدارية، والتحدي الصعب الذي فرضته المواجهة مع "داعش"، الفصيل المتداخل إيديولوجياً مع إيديولوجيا النصرة، ليظهر الجولاني طارحًا مشروع الإمارة والجيش الموحد، والذي بدأت النصرة تطبيقه من خلال تعزيز مواقعها في ريف حلب وإدلب بملحقة كتائب متممة بتجاوزات، وتعزيز مواقعها في درعا حيث توجه معظم جنود النصرة الخارجيين من دير الزور.

أما بالنسبة للثورة السورية المسلحة، فإن خسارة الدير حضرت مناطق نفوذها في ريف حلب وإدلب شماليًا، والغوطة الشرقية المحاصرة، ودرعا جنوبًا، دون أن تمتلك موارد ذاتية، أو مساحة جغرافية متصلة، وتتعرض للتهديد المستمر والعنيف من قبل النظام وتنظيم "داعش"، وتخترقها تشققات ذاتية عدا عوامل الضعف الموضوعية، ولكنها تمتلك الحواضن



الشعبية والعدد الأضخم من المقاتلين، والفرصة الأكبر بإقامة علاقات سياسية دولية. ويظل المراقب الدولي على المشهد السوري الغارق بالفوضى، والممتلئ بكل أنواع الجهاديين (الإرهابيين)، مرجحاً أي نية حقيقية للتدخل العسكري أو حتى السياسي، ومفضلاً ترك الأمور تأخذ مسارها وحدها، لتصبح سوريا (والعراق) محقة الإرهابيين ومنفي لأزمات المنطقة.

ترصد هذه الدراسة تأثير هذا السقوط على الثورة السورية التي تدخل مرحلة جديدة، على المستوى الميداني، وعلى مستوى التحالفات القائمة، والخطابات الإسلامية والجهادية، بالنسبة لتنظيم دولة العراق والشام، وجبهة النصرة، والثورة السورية المسلحة، متبعاً مراحل تطور هذه القوى ومشهدها الراهن وما آلت لها القادمة.^١.



^١ تستثنى الدراسة البحث في الفصائل الكردية بشكل مستقل، دون نفي أهميتها كمكون وعامل في المشهد السوري.



ثانيًا: سقوط الجزيرة المنسية²

مررت حرب السيطرة على دير الزور بمحطات، كانت بدايتها الحقيقة في 2 شباط 2014م بسيطرة تنظيم "داعش" على حقل كونيكيو للفاز، والذي كان ضمن إدارة جبهة النصرة. بعد ذلك بأيام، هاجم التنظيم منشآت تحت سيطرة الهيئة الشرعية (وجبهة النصرة عضو رئيس فيها) في ريف الحسكة، وقطع طريق الإمداد نحو دير الزور. وقد أصدرت الجبهة في 7 شباط بياناً بعنوان "قد أعتذر من أنذر"³، الذي سرد حوادث اعتماد الدولة على جبهة النصرة ومنشآتها وهدد بالرد على "البغى". كما أصدرت الدولة في 9 شباط بيان رد بعنوان "هذا بيان للناس"⁴، تضمن تخوين جبهة النصرة التي تقف في صف واحد مع الصحوات (والتخوين هنا يطابق التكفير)، لتصدر جبهة النصرة بعد ذلك بيوم واحد بيان "فتبيئوا": ردًا على اتهامات الدولة وتحميلها مسؤولية حرب العشائر والفصائل عليها.⁵

وفررت حرب البيانات هذه دافعًا إضافيًّا إلى انحياز جبهة النصرة إلى سردية الفصائل التي حاربت التنظيم منذ كانون الثاني 2014م، وإن وفرت حماية لعناصر التنظيم في ريف إدلب وريف حلب ومنعت من مهاجمة مقراتهم بداية الحرب، ولم تقاتل في هذه الحرب ضدّها إلا في الرقة حتى ذلك الوقت، القتال الذي انتهى بانسحاب الجبهة وأحرار الشام وفصائل مختلفة من الرقة، ليس بسيطرة عليها التنظيم وتكون عاصمته ومركز عملياته في سوريا.

في 23 شباط 2014م، اغتيل الرمز الجهادي المقرب من جبهة النصرة وأحد مؤسسي أحرار الشام "أبو خالد السوري"، وتوجه الاتهام في الفضاء الجهادي العام نحو تنظيم الدولة الذي نفى مسؤوليته عن العملية. بعد يومين من ذلك صدرت كلمة "أبو محمد الجولاني" القائد

² اعتمدت الدراسة في تتبع سقوط دير الزور على التوثيق اليومي الذي قام به الباحث، إضافة ل مقابلة أجراها الباحث مع "محمد الخليفة" الناشط الإعلامي ومراسل شبكة شام في دير الزور.

³ بيان جبهة النصرة: قد أعتذر من أنذر، انظر:

<http://justpaste.it/ec4z>

⁴ بيان تنظيم دولة العراق والشام: هذا بيان للناس، انظر:

<http://justpaste.it/ex3>

⁵ جبهة النصرة: بيان بعنوان "فتبيئوا" ردًا على بيان جماعة "الدولة" المسمى "هذا بيان للناس"، انظر:

<http://justpaste.it/ed7l>



العام لجبهة النصرة بعنوان "ليتك رثيتي"، تكلم فيها عن "السوري" وأمهل التنظيم خمسة أيام للعودة إلى العراق، التهديد الذي تراجعت عنه الجبهة عملياً، إما بسبب عدم قدرتها على تنفيذه، أو بسبب طلب أبرز منظري الجيل الأول من السلفية الجهادية "أبو محمد المقدسي" ذلك⁶، ولكن البيان مثل القطيعة المائية مع أي فرصة للتصالح مع التنظيم، وشرعنة الحرب المسلحة العامة ضده.

في نهاية آذار 2014م، كانت المواجهة الأعنف والأكثر دموية ما بين "داعش" و"النصرة" في مركدة بريف الحسكة، المخزن النفطي والمعبر الحدودي (شبه الأخير وقتها) نحو العراق. قضى أكثر من خمسين مقاتلاً من جبهة النصرة وأحرار الشام ومقاتلي الجيش الحر المنتسبين إلى دير الزور، وعدد يزيد على ذلك من "داعش"، واستطاعت "داعش" السيطرة على مركدة رغم استمرار الاشتباكات، وتم رش وجوه قتلى النصرة بالأسيد، وقيل وقتها إن القوة الضاربة للتنظيم ضد النصرة في مركدة، كانت هي ذاتها التي أمنت لها الجبهة الانسحاب من الساحل نحو الرقة.

بالسيطرة على مركدة، بدأ التنظيم محاصرة ريف دير الزور الشمالي وقطع طرق إمداده من جهة الحسكة. في فجر العاشر من نيسان، استيقظت مدينة البوكمال (ريف دير الزور الجنوبي) على رتل من حوالي سبعين سيارة مسلحة "داعش" يقتحمون المدينة. كانت جبهة النصرة قد أرسلت رتلًا لفك الحصار عن مدينة حمص، ورتلًا آخر إلى مطار دير الزور المحاصر مع فصائل من الجيش الحر، ضمن هذا الفراغ الذي استغلته "داعش" كان هناك ما يشبه هبة شعبية لمواجهة التنظيم، شاركت فيها كتائب المدينة، وجبهة النصرة بقياداتها (أبو حسن الكويتي الشرعي في النصرة وأبو ماريا القحطاني كانوا مشاركين في المعركة)، لتنتهي بمقتل ما لا يقل عن 70 مقاتلاً من شباب المدينة، وأكثر منهم من مقاتلي داعش المهزومين والذين انسحب من تبقى

⁶ المقدسي يدعو الجولاني لإلغاء مهلة "تنظيم الدولة"، الجزيرة نت، 2/3/2014م، انظر:

<http://aljazeera.net/news/arabic/2014/3/2/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3%D9%8A-%D9%8A%D8%AF%D8%B9%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%84%D8%A5%D9%84%D8%BA%D8%A7%D8%A1-%D9%85%D9%87%D9%84%D8%A9-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9>



منهم نحو البادية⁷. في تلك الأيام نفسها شنَّ التنظيم هجومه على قرى ريف دير الزور الجنوبي (كباقي، الشولا، المالحة)، واستطاع السيطرة عليها بعد معارك عنيفة ودموية، ليقطع التنظيم طرق الإمداد الجنوبية (البادية) نحو الدير بعدما قطع طرق الإمداد الشمالية. في أثناء ذلك قبله كان التنظيم يعزز وجوده في "ولاية البادية" الممتدة على مساحة شاسعة ما بين غرب دير الزور وشرق حمص وحمة⁸، والتي تضم مقرات قليلة وضعيفة للجبهة الإسلامية أو جبهة النصرة، ما يسهل السيطرة عليها إضافة لمساحتها الشاسعة، وحاول السيطرة على حقل الشاعر النفطي في بادية حمة⁹. ساعد ذلك على المراقبة والقطع الجزئي لطرق الإمداد الخلفية (خارج الطريق الدولي)، والتي تصل ما بين الجهة الشرقية والشمالية والوسطى، ولم يؤثر هذا على الثوار الجبهة الشرقية فقط، بل امتدَّ أثره إلى حمص التي كانت تحاول جبهة النصرة إرسال قوات مساندة إليها، وقدمنت ولاية البادية مساحات شاسعة خارج المراقبة والتهديد وأمنة لجمع المقاتلين وانطلاق عملياتهم.

لم تنشأ خلال ذلك أي معركة كبرى ضد التنظيم في معاقله في محافظة الرقة وبلدات الريف الشرقي لحلب (الباب، منج، جرابلس)، حتى من قبل جبهة النصرة التي أرسل قادتها نداءات استغاثة وطلبات إمداد معلنة على "تويترا"، ما يوحى بعدم الاستجابة للمراسلات السورية بين فروع النصرة، رغم أنه كان واضحًا منذ هجوم العاشر من نيسان أن "داعش" مستمية في خطتها للتمدد في دير الزور.

مع حلول العاشر من أيار، كان التنظيم قد استطاع في عملية مخططة بإتقان السيطرة على القسم الأكبر من الريف الغربي لدير الزور (وبعض بلدات الريف الشرقي)، ويرسل تهديداً إلى المدينة بمحاصرتها. بعدها بأيام هاجم مدينة الصور بدأية ريف دير الزور الشمالي؛ ليؤمن التنظيم طرق إمداده نحو الريف الشمالي ونحو الريف الغربي ونحو الجنوبي، ويقطع كلَّ طرق

⁷ مجموعة تعزيزات القيادي في جبهة النصرة "أبو حسن الكويتي" عن معركة البوكما، انظر: <http://justpaste.it/marsad39>

⁸ سامي الحموي، "حمة... داعش تمدد في الصحراء"، عن布 بلدي، العدد 115، الأحد 4/5/2014م، انظر: <http://enab-baladi.com/archives/16985>

⁹ استعاد التنظيم السيطرة على حقل الشاعر النفطي بتاريخ 18/7/2014م.



الإمداد هذه عن أعدائه في الدير. بدأ التنظيم يقترب من أهدافه المحورية الثلاثة: الشحيل والميادين والبوكمال.

تراجع سلطة التنظيم جزئياً أول حزيران، مع استعادة "مجلس شورى مجاهدي الشرقية"¹⁰، التكتل الذي جمع الفصائل المقاتلة لداعش، على ثمان بلدات في ريف دير الزور الغربي¹¹.

لم يلبث التنظيم أن هاجم قرى ريف دير الزور الشرقي، وفرض سيطرته بتاريخ 6 حزيران من قرية حطلة إلى البصيرة المطلة على الشحيل معقل جبهة النصرة الرئيس، بالتوازي مع مهاجمته لقرى الريف الشمالي، حيث أمن تواصلاً ممتدًا من الحسكة والرقة نحو الريف الغربي والشرقي والشمالي لدير الزور، وما بين هذه المحاور فيما بينها.

بدأ التنظيم بتغلغله في عمق دير الزور باكتساب الولاءات -أو شرائها- وتحييد الفصائل التي لا ترغب بالدخول في أي قتال لأنشغالها بحماية آبار النفط، عبر سياسة استرضاء اتبعتها الدولة عبر رغبة المال، لتمكن من كسب بيعة عشائر وفصائل أخرى عبر رهبة القصف. لم تتوقف حدة المعارك ولا انخفض مستوى العنف فيها، لكن ما أعطى قوة داعش الخشنة الواقعية الموضوعية للسيطرة على ريف دير الزور، كان قوتها الناعمة التي اكتسبت بها ولاء "كتائب النفط"، وقسماً لا بأس به من زعامات العشائر، وأعطت انتصارات داعش في العراق دفعاً قوياً لاستكمال قوتها الناعمة والخشنة.

في العاشر من حزيران، انتشر على جميع وسائل الإعلام العالمية، في موجة من الدهشة اجتاحت الجميع، خبر سيطرة داعش على الموصل، وتتابع سيطرته على صلاح الدين وأجزاء من الأنبار وديالى تباعاً؛ ما وفر له فائض قوة وتسليح ومعنى ومقاتلين، ضخّ قسماً كبيراً منه نحو الجانب السوري، ليسيطر في 21 حزيران الراهن على معبر القائم الحدودي مع سوريا ومع

¹⁰ أعلن عن تشكيل مجلس شورى مجاهدي الشرقية في 25/5/2014م، انظر:
<https://www.youtube.com/watch?v=yGrD9yzvHgM>

¹¹ مجلس شورى مجاهدي الشرقية يعلن فك الحصار عن دير الزور، انظر:
<https://www.youtube.com/watch?v=2SZImawR5hM>



مدينة البوكمال¹²، في اليوم نفسه الذي أُعلن فيه سيطرته على مدينة المحسن، وبلدات البوليل والبوعمر في ريف دير الزور (وأستطيع الثوار استعادة المحسن بعد ذلك). كانت سيطرة التنظيم على معبر القائم الضريبة النوعية التي مكنته من السيطرة السريعة على مدينة البوكمال، والتي بايع أمراء جبهة النصرة فيها (بتاريخ 24 حزيران) تنظيم الدولة، ليعلن سيطرته عليها عبر اتفاق صلح بعد عدة أيام، مسندًا بتفوق عسكري على مستوى السلاح المدفعي ومعنويات المقاتلين، يمنحه بسهولة القدرة على كسب الحرب النفسية ويهدد بقدرته على كسب الحرب الميدانية، ليحقق بالسيطرة على البوكمال هدفه الاستراتيجي الأول المتمثل بربط العراق بسوريا، الأمر نفسه الذي حصل في مدينة الميادين بعد مبايعة الهيئة الشرعية فيها للدولة.

لم تلبث هذه التطورات الميدانية أن أتبعت بتطورات رمزية وهيكافية بالنسبة للدولة، أعلنها الناطق باسم دولة العراق والشام "أبو محمد العدناني" يوم 29 حزيران، حين أعلن تحول الدولة إلى "الخلافة" وبيعة "أبي بكر البغدادي" ك الخليفة للمسلمين¹³؛ ليظهر البغدادي بعد عدة أيام في الخامس من تموز يخطب الجمعة في "رعيته" في الموصل¹⁴.

أتاح فائض القوة والمال والمعنويات الضخم الذي اكتسبته داعش في العراق أن تقلب المعادلة سريعاً في دير الزور، في ظرف تضاؤل الفصائل المواجهة لهم، وحصار داعش لما تبقى من مناطقهم.

في 3 تموز، وقعت فصائل بلدة "الشحيل" فيما عدا جبهة النصرة اتفاق مصالحة و"بيعة" لدولة الخلافة بعد قتال دام ستة أشهر، في مشهد انكسار تاريخي بالنسبة لبلدة فقدت أكثر من مائتين من أبنائها في مواجهة داعش¹⁵. يقضي الاتفاق بتعيين أمير على الشحيل من أبنائهم،

¹² "المسلحون يسعون سيطرتهم غرب العراق"، الجزيرة نت، 2014/6/22م، انظر:

<http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/6/21/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%84%D8%AD%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%88%D8%B3%D8%B9%D9%88%D9%86-%D8%B3%D9%8A%D8%B7%D8%B1%D8%AA%D9%87%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82>

¹³ أبو محمد العدناني يعلن إلغاء دولة العراق والشام وإعلان الخلافة الإسلامية، انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=uWxunIdR2CA>

¹⁴ خطبة وصلاة الجمعة لمولانا أمير المؤمنين أبي بكر البغدادي حفظه الله، انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=itu6NhED9Yk>

¹⁵ بيعة فصائل وأهالي مدينة الشحيل للدولة، انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=VD7rSouvrMM>



وعدم التعرض للفصائل الموجودة أسوة بالاتفاق الذي وقعه مع البوكمال والميادين. أتبع التنظيم المصالحة بشرط مذل يفرض نفي أهالي الشحيل عشرة أيام لتفتيش البلدة^{١٦}, وكانت سيطرته على الشحيل بعد البوكمال والميادين تعني عملياً سيطرته على ريف دير الزور، رغم وجود بعض القرى الخارجة عن سيطرته، وعدم دخوله لمدينة دير الزور نفسها حتى يوم 14 تموز^{١٧}.

رغم هذه السيطرة على ريف دير الزور، إلا أنها سيطرة هشة بحكم عدم توفر حواضن شعبية للتنظيم في ريف الدير، وبحكم أن الغالبية العظمى من البيعات كانت تحت الإكراه والإهانة من القتال، أو بشراء الولاءات واسترضاء الزعامات عبر المال أو المصالح، ولا تمثل انتماء إيديولوجيًّا صلبًا لفكرة الخلافة، ولا استعدادًا للتضحية في سبيلها، ورغم تبدل سياسة التنظيم نحو استرضاء المجتمع المحلي وتعيين أمراء على هذه المجتمعات من أبنائها، إلا أن تغلغل قيادات المهاجرين التدريجي ومحاولة إدماج الفصائل في بنية الدولة، ستحافظ على تعريف هذه السلطة كجسد غريب، وتؤمن قابلية دائمة للانقضاض عليه فيما لو توفرت بؤرة صراع قريبة ومؤثرة على تمسك التنظيم في سوريا.

^{١٦} "تنظيم دولة العراق والشام يهجر مدن وبلدات ريف دير الزور الشرقي"، الشبكة السورية لحقوق الإنسان، 8/7/2014م، انظر: <http://sn4hr.org/arabic/2014/07/08/1610/>

^{١٧} "تنظيم الدولة يسيطر على دير الزور واشتباكات بالقلمون"، الجزيرة نت، 14/7/2014، انظر: <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/7/14/%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-%D9%8A%D8%B3%D9%8A%D8%B7%D8%B1-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%AF%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%B1-%D9%88%D8%A7%D8%B4%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D9%83%D8%A7%D8%AA-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%84%D9%85%D9%88%D9%86>



ثالثاً: من الفرع إلى الدولة إلى الخلافة

أعلن عن تنظيم "دولة العراق والشام" في 9 نيسان 2013¹⁸، لتبدأ بعدها أكبر عملية فرز وارتباك داخل التيار الجهادي العالمي، وداخل الثورة السورية نفسها، التي وجدت نفسها في جو مؤدلج تماماً، يصعب على من لم يمتلك فيه خطاباً إيديولوجيّاً صلباً أن يستمر مقابل زيادة الطلب على الخطابات الجهادية الأكثر راديكالية، والتي باتت تسيطر على سوق المزایدات والاتهامات والتکفير منذ وقتها.

أدى هذا الحدث إلى ضعف مؤقت أصاب جبهة النصرة، التي انتقلت نسبة واسعة من المهاجرين فيها إلى "الدولة" الجديدة، ونُهيت مقراتها ومستودعات أسلحتها من قبله¹⁹. هذا الضعف المؤقت الذي سمح للجبهة أن تقيم تحالفات مع الفصائل السورية (السلفية خاصة)، وتوطن نفسها ضمن المعادلة السورية على المدى البعيد.

مع استمرار تمدد التنظيم وممارساته السلطوية والقمعية، وانتهاكاته المقصودة والمنهجية ضد نشطاء ومقاتلين ضمن المجموعات السلفية نفسها، والتي كان لأحرار الشام من بينها النصيب الأكبر من هذه الانتهاكات التي أحدثت ضجة في الرأي العام ضد الدولة²⁰، ضمن هذا المشروع المتعدد والذي كرس تعريفه كـ"آخر": وجدت الفصائل السورية (وفي مقدمتها المجموعات السلفية) نفسها أكثر اضطراراً للتحالف والتتوسيع، لتمتلك قدرة على المواجهة والمنافسة على الساحة الداخلية مع تنظيم "داعش"، وعلى الساحة الخارجية مع الائتلاف وهيئة الأركان، ما أنتج في النهاية "الجبهة الإسلامية" في 22 تشرين الثاني 2013²¹، والتي أحدثت جوًّا عاماً من الطلب على التحالف والتتوسيع لدى الجهات "الأقل سلفية" (جيش المجاهدين والاتحاد

¹⁸ إعلان الدولة الإسلامية في العراق والشام، نُشر في 9/4/2013م:
<https://www.youtube.com/watch?v=QcXnK9orPDA>

¹⁹ مقابلات خاصة مع عناصر من جبهة النصرة في الرقة طلبوا عدم ذكر أسمائهم، ومشاهدات نشطاء من المدينة.

²⁰ للتوضيغ في هذه الانتهاكات، انظر تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان، "تنظيم دولة العراق والشام"، انظر:

<http://sn4hr.org/arabic/2014/02/01/%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A7%D9%85>

وأيضاً:

أحمد أبيزيد، "الثورة والدولة: في جذور الحرب"، زمان الوصل، 15/1/2014م، انظر:
<https://www.zamanalwsl.net/news/45503.html>

²¹ إعلان تأسيس الجبهة الإسلامية، انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=uaAqXVaqm8A>

الإسلامي لأجناد الشام)، أو لدى مشاريع حظيت بدعم إقليمي للمنافسة (حركة حزم وجبهة ثوار سوريا)²².

لم يدفع إعلان "داعش" الفصائل السورية وحدها لارتباك، بقدر ما أثر ذلك حتى على مجموعات "المهاجرين"²³، والتي وجدت نفسها ما بين تحالفات ميدانية مباشرة، وما بين نقاشات نظرية ضمن التيار الجهادي العالمي حول الموقف من التنظيم. ولعلّ أوضح تأثيرات إعلان داعش على المهاجرين كانت من خلال بيعة القائد العسكري عمر الشيشاني للتنظيم²⁴، والذي أصبح القائد العسكري ومخطط العمليات الأهم بالنسبة للتنظيم في سوريا، والذي قاد معارك السيطرة على الباب والرقة وريف دير الزور. هذه البيعة التي أدت فيما بعد إلى انفصال أكثر من نصف مقاتلي القوqاق عنـه، ليكونوا الممثل الشرعي لجيش المهاجرين والأنصار بقيادة صلاح الدين الشيشاني، منذ تشرين الثاني 2013م²⁵.

أما بالنسبة لتنظيم القاعدة فقد كانت الخلافات متراكمة ومسكوتاً عنها، وإن كشفت عنها وثائق أبوت أباد، ما بينهم وبين "دولة العراق الإسلامية" وقبله مع "أبو مصعب الزرقاوي" الأب الروحي والفكري الحقيقي للدولة التي أعلنت بعد وفاته²⁶، مع إعلان منظرين جهاديين في وقت مبكر انتقاداً لهم وتشكيكاً بهما بالتنظيم، مثل المنظر الاستراتيجي الجهادي عبد الله بن محمد²⁷،

²² أحمد أبازيد، "ما بعد الجبهة الإسلامية: هزات ارتديدية لزلزال لم يكتمل"، زمان الوصل، 20/2/2014، انظر: <https://zamanalwsl.net/news/46778.html>

²³ للتوضيح حول توزع مجموعات المهاجرين وتحالفاتها، انظر: أحمد أبازيد، "المهاجرون في الثورة السورية: جدلية الدولة والنصرة"، زمان الوصل، 21/3/2014م، على الرابط: <https://www.zamanalwsl.net/news/47839.html>

²⁴ حول عمر الشيشاني وسيرته قبل القدوم إلى سوريا، انظر: مراد بطل الشيشاني، نبذة عن "عمر الشيشاني" قائد المقاتلين الشيشانيين في سوريا، bbc، 13/11/2013م: http://195.188.87.10/arabic/middleeast/2013/11/131112_sheshenya_omar.shtml

²⁵ جيش المهاجرين والأنصار: بيان رقم 1، الحساب الرسمي للجيش على تويتر، انظر: <https://twitter.com/almohagreen0/status/406476316603449344>

²⁶ حسن أبو هنية، "الدولة" الإسلامية" في العراق والشام .. تتمرد على القاعدة (1)"، عربي 21، 21/1/2014م، انظر: <http://arabi21.com/Story/717273>

²⁷ يعتبر عبد الله بن محمد، والمشهور في الفضاء الافتراضي بلقبه "شؤون استراتيجية"، من أبرز الباحثين السياسيين والمنظرين الاستراتيجيين المناهضين للتيار الجهادي العالمي، وينشط من خلال كتباته المنتشرة بين الجماعات الجهادية، ومن خلال مقالاته وتغريداته على تويتر. للاطلاع على موقفه - الذي أثار جدلاً كبيراً بين الجهاديين في حينه- من تنظيم الدولة، انظر الرابط: <http://www.islamedaily.org/ar/scholars/11551.article.htm>

وعقيبه على المقال بعد بدء الحرب وانحياز معظم المنظرين والرموز الجهاديين ضد تنظيم الدولة، على الرابط: <http://justpaste.it/f65d>

ولكن هذا الخلاف كان لا بد له أن يظهر إلى العلن مع انتهاكات التنظيم ضد "أحرار الشام" القريبة من التيار الجهادي، والتي أدت بمنظرين جهاديين مثل إياد القنبي وأبي بصير الطرطوسى وعبدالعزيز الطريفي وسامي العلوان إلى انتقاد التنظيم، خاصة بعد قرار الظواهري الذي أمر برجوع "الدولة" إلى العراق وبقاء "النصرة" في الشام وإهمال الدولة ورفضها له²⁸، إلى أن قامت الحرب الموسعة ضد التنظيم في 3 كانون الثاني بداية هذا العام، والذي دفع القاعدة مع 2 شباط إلى إعلان عدم وجود أي علاقة تنظيمية بتنظيم الدولة²⁹.

ودخل هذا الانفصال مرحلة أكثر حدة مع اغتيال الرمز الجهادي "أبو خالد السوري" في 23 شباط الراهن³¹، رغم نفي تنظيم الدولة علاقته بالاغتيال³²، لتبلغ المفاصلة إلى حدتها الأقصى، خاصة مع رفض الدولة لسلسلة من المبادرات التي قدمها منظرون ورموز جهاديون كانت أشهرها "مبادرة الأمة"³³، وظهرت هذه المفاصلة لدى معظم رموز ومنظري التيار الجهادي (وفي مقدمتهم أبو محمد المقدسي وأبو قتادة الفلسطيني)³⁴. أصدر الجولاني كلمة "ليتك رثيتي" أمهل فيها التنظيم خمسة أيام لاستئصاله، وأصدر الظواهري في 5 نيسان كلمة رثاء في رفيق

²⁸ "الظواهري يحل دولة العراق والشام الإسلامية", الجزيرة نت, 9/6/2013م, انظر:

<http://www.aljazeera.net/news/arabic/2013/6/9/%D8%A7%D9%84%D8%B8%D9%88%D8%A7%D9%87%D8%B1%D9%8A-%D9%8A%D8%AD%D9%84-%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9>

²⁹ القاعدة تقطع علاقتها بتنظيم داعش، في سودا، bbc، 3/2/2014م، انظر:

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2014/02/140203_syria_un_qaeda_severe_relationship.shtml

³⁰ مقتل القيادي الجيادي "أبو خالد السوري" بهجوم في حلب, bbc, 24/2/2014م، انظر:

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2014/02/140223_syria_car_bomb_field_atmeh.shtml

³¹ "تنظيم الدولة يتبرأ من مقتل أبو خالد السوري", الجزيرة نت, 2/3/2014م, انظر:

%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-%D9%8A%D8%AA%D8%A8%D8%B1%D8%A3-%D9%85%D9%86-%D9%85%D9%82%D8%AA%D9%84-%D8%A3%D8%A8%D9%88-%D8%AE%D8%A7%D9%84%D8%AF-

%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A

موقع مبادرة الأمة على شبكة الإنترنت 33

%84%D9%86%D8%B5%D8%B1%D8%A9

كلمة ابو محمد الجولاني: ليتك رثيتي، انظر:



دربيه أدان فيها ضمنياً تنظيم الدولة، ودعا فيها إلى "نبذ الاقتتال"³⁵. ولم يصمت التنظيم الذي أجاب على رسالة القاعدة عبر الناطق الرسمي باسمه "أبو محمد العدناني" بكلمة عنوانها "لن يكون هذا منهجنا ولن يكون"، بتاريخ 17 نيسان الراهن، بتخوين الطواهري نفسه، واعتبار القاعدة نفسها مثالاً على الانحراف والابطاح و"عداوة المجاهدين".³⁶ أما رد الطواهري بعد ذلك، فكان الطلب بوقف الاقتتال في كلمة صوتية بتاريخ 2 أيار الراهن³⁷، الطلب الذي أعلنت النصرة الاستجابة له على مضض، ولم يلبث وقف إطلاق النار أن انهار سريعاً؛ بحكم عدم التزام تنظيم الدولة به كما قال قادة الجهة³⁸، وعادت الحرب إلى مرحلة الجذرية المطلقة.

مع استمرار توسيع التنظيم وإقصائه تجاه أي نقد مخالف، انحازت النسبة العظمى من منظري التيار الجهادي نحو النصرة، حتى من كان محسوباً على أنصارها (مثل عبد الله المحيسي³⁹ ، وأكرم حجازي، وهانى السباعي، وطارق عبد الحليم)، ليكون التنظيم حركة تمثل تجاوزاً لتنظير ورمذية الجيل الأول من التيار السلفي الجهادي، حركة ما بعد القاعدة.

في جوهر الخلاف: العرقنة وقهر الداخل

إن جوهر الخلاف ما بين القاعدة والدولة، هو في الطبيعة الذاتية لكل من التنظيمين، وفي اختلاف توصيفهما للصراع والهدف منه، في بينما تعتمد القاعدة بنية معولة وأهدافاً جيوسياسية لحروبها متعددة المناطق والمستويات، اعتمد أبو مصعب الزرقاوي توصيفاً

³⁵ كلمة أيمن الطواهري: رثاء شهيد الفتنة الشيخ أبي خالد السوري، انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=oAfmy1WXHYU>

³⁶ كلمة أبو محمد العدناني: ما كان هذا منهجنا ولن يكون، انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=roUKoO1-3hc>

³⁷ "الطاوahri يطالب النصرة بوقف قتال تنظيم الدولة"، الجزيرة نت، 2/5/2014م، انظر:

<http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/5/2/%D8%A7%D9%84%D8%B8%D9%88%D8%A7%D9%87%D8%B1%D9%8A%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9%84%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5%D8%B1%D8%A9%D8%A8%D9%88%D9%82%D9%81-%D9%82%D8%AA%D8%A7%D9%84-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9>

³⁸ تغريدات أبو ماريا القحطاني حول عدم التزام الدولة بوقف إطلاق النار، انظر:

<http://justpaste.it/pdf/fcds-justpaste-it.pdf>

³⁹ كانت شهادة الشيخ السعودي عبدالله المحيسي التي حقل فيها تنظيم الدولة مسؤولية قتال الفصال لها، أكثر المواقف تأثيراً في القاعدة الجهادية (الخليجية خاصة) المؤيدة لداعش، وأثارت الكلمة موجة عنيفة من الردود والنقاشات في الفضاء الجهادي الافتراضي، بحكم أن المحيسي كان من المسؤولين على أنصار الدولة، وسبق أن دعا جهة النصرة وأحرار الشام للتوحد تحت رايها، للاطلاع على هذه الشهادة انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=SRi4I92HGys>



هوياتياً طائفياً خاض على أساسه الحرب ضد "عموم" المناطق الشيعية في العراق⁴⁰, ليتطور الأمر مع دولة العراق الإسلامية إلى أن يصبح التنظيم إمارة مستقلة عن القاعدة، وتعترف بها القاعدة شكلياً - كفصيل جهادي لا كدولة- حتى لا تفتت تماسك التيار الجهادي. وحافظ الظواهري (حكيم الأمة) على دوره في حماية التيار الجهادي من التشتت أو من "شماتة الأعداء", حين دافع عن دولة العراق ضد هجوم الصحوات عليها، دون أن ينتقد على العلن سلوكيات دولة العراق وجرائمها التي انتقدتها قيادة القاعدة في السر (كما توثق وثائق أبوت أباد)⁴¹, وأناحت السجون الأمريكية تلاقي ضباط البغدادي ضباطاً مع العناصر الجهادية الأكثر تشدداً⁴², ليبدأ تغلغل تدريجي للبعث داخل التنظيم، ازدادت وتيرته مع مقتل (أبو حمزة المهاجر) و(أبو عمر البغدادي) في 2012م، وتولى (أبو بكر البغدادي) إمارة التنظيم⁴³, ليبدو أن هناك - كما يلاحظ الأستاذ حسن أبو هنية- عملية عرقنة للتنظيم⁴⁴, من حيث البنية والأهداف، رغم وجود مهاجرين مستدلين في المنظومة العراقية للتنظيم، ويوظفون في أهدافها، حيث يكثر استخدامهم في العمليات الانتحارية وفي الصفوف الأولى من القتال، ويتفاوت حضورهم ما بين الساحة السورية والعراقية، حيث يحرص التنظيم على وجيه العراقي المحلي في العراق، بينما ابتدأ حديثاً فقط أمراء سوريين على المناطق التي يسيطر عليها من سوريا، ولكن هؤلاء الأماء

⁴⁰ حسن أبوهنية، الدولة "الإسلامية" في العراق والشام .. تتمدد على القاعدة (2)، عربي 21/5/2014م، انظر: <http://arabi21.com/Story/717864>

⁴¹ حسن أبوهنية، الدولة "الإسلامية" في العراق والشام .. تتمدد على القاعدة (3)، عربي 21/10/2014م، على: <http://arabi21.com/Story/719149>

⁴² يقدم وائل عصام منظوراً مختلفاً منظور المؤامرة للعلاقة ما بين ضباط البغدادي وداعش، بتوضيح أن "داعش" مثلت مشروع مقاومة العرب السنة ضد نظام الملكي الممثل للمشروع الإيراني، وأن هذا الوجود لضباط الجيش السابق يشمل كافة الجماعات المقاتلة، انظر: وائل عصام، "فصل المقال ما بين داعش والبعث من علاقة واتصال"، القدس العربي، 7/7/2014:

<http://www.alquds.co.uk/?p=189940>

⁴³ " من أهم الضباط البغداديين الذين تولوا مناصب قيادية في الدولة: العميد أبو مهند السويداوي الذي كان القائد العسكري للتنظيم لفترة بديلًا عن حجي بكر، والأخير هو أيضاً ضابط بعثي كان قائداً العمليات العسكرية للتنظيم في سوريا قبل مقتله في ريف حلب، العقيد أبو مسلم التركمانى وهو المشرف العام على التنظيم ويدبر معاركه في العراق، عبد الرحيم التركمانى وكان الأمير الفعلى للتنظيم في ديرالزور ولقبه عبد الناصر، علي أسود الجبورى والذي كان يعمل مخرياً لدى المخابرات العراقية والمعرف بالـ "أبو أيمن العراقي" والذي كان وإلى الدولة في الساحل والمتم بالكثير من جرائم الإعدام الميداني، المقدم أبو عبد الرحمن البيلاوى وهو القائد العسكري للتنظيم (قتل في حزيران الراهن في الموصل)، المقدم أبو عمر النعبي وإلى الرمادي، المقدم أبو أحمد العلوانى وإلى دبى، المقدم أبو عقيل موصى وإلى الموصل، أبو علي الأنباري النائب الأول للبغدادي وممسؤل اللجنة الشرعية والأمنية".

انظر: أحمد أبيزيد، "تسريبات الإرهابيين: حرب الأسرار"، زمان الوصل، 11/4/2014م، انظر: <https://zamanalwsl.net/news/48541.html>

⁴⁴ حسن أبو هنية، "هل ستتصمد دولة البغدادي طويلاً؟"، عربي 21/7/6/2014م، انظر: <http://arabi21.com/Story/760332>



أنفسهم خاضعون للنواة الصلبة للتنظيم، والتي يتشكل وجهها العسكري من المهاجرين (التونسيين والشيشان خاصة) ونواتها القيادية من العراقيين.

وهذا ما استغلّه المظّرون الجهاديون الأميل إلى جهة النصرة، بدعوة العناصر "الجزراوين" أو الذين تعود أصولهم لدول الخليج، بالانشقاق لأنهم يؤخرون عن المناصب القيادية ويوظّفون كواجهة إعلامية في تويتر فقط.⁴⁵

ثمة فارق جوهري آخر ما بين القاعدة والدولة، يتأسس من أن القاعدة تبني شرعيتها على مقاومة "الخارج" المحتل، بينما تبني الدولة شرعيتها على قهر "الداخل" المرتدين، وهذا انقلاب في أساس شرعية التيار الجهادي نفسه، في بينما اعتمدت القاعدة والتيار السلفي الجهادي عامة في شرعية وشعبية على مقاومة السوفيات في أفغانستان أو الشيشان، ومقاومة الصرب في البوسنة، ومقاومة أمريكا في أفغانستان، أو باستهداف مصالحها في البلاد العربية أو في أمريكا نفسها؛ تعتمد الدولة في إعلان شرعيتها على كونها تحمي الإسلام من أعدائه داخل "المسلمين" أنفسهم، والذين يصبح اسمهم المرتدين أو الصحوات أو البغاء. ولا يتوقف ذلك على حرب الدولة مع هؤلاء المرتدين الذي يشكل الإسلاميون والسلفيون الجهاديون النسبة الأكبر منهم، وإنما يمتد إلى طرائق إثبات "إسلامية" الدولة من خلال صور هدم الأضرحة، أو حرق الدخان، أو تطبيق الحدود، أو صلب المجرمين وقطع رؤوسهم في الساحات العامة.

الخلافة: معادلة النفط والعشائر

ابتدأت الحرب الموسعة ضد تنظيم دولة العراق والشام في 3 كانون الثاني 2014م، طرد التنظيم خلال أيام من ريف حلب وريف إدلب، وتأخر طرده من دير الزور إلى 9 شباط، ليحصر وجوده في الرقة والباب والمنبج وجрабلس، ومناطق نفطية في الحسكة مثل مركدة

⁴⁵ تعتمد قوة كافة التنظيمات الجهادية على مدى شعبيتها في الخليج، ولذلك يشكل التويتر الفضاء الجهادي الافتراضي الرئيسي، ويملك التنظيم قوة إعلامية متقدمة في أمن المعلومات وفي صناعة الرأي العام. ومن الأسماء الخليجية المهمة التي تسهم في الدعاية للتنظيم إعلامياً: ترجمان الأسوارتي، السمبتيك (عاد للسعودية)، عبدالمجيد الثبيتي (قتل)، ومن الشرعيين: عثمان آل نازح، أبو بكر القحطاني، تركي البنعلي، ومن الشرعيين غير الرسميين: أبو دجانة الكويتي، أبو عمر الكويتي.

ويلاحظ هنا أن أغلب المشايخ المحسوبين على التيار الجهادي في الخليج، والمهاجرين "الجزراوين"، من صف القيادات خاصة، مؤيدون لجهة النصرة.



والشدادي.

كان تمدد التنظيم قبل الحرب الموسعة عليه، جيو-استراتيجياً يحاول السيطرة على مناطق النفط وخطوط الإمداد للثوار، والاقتراب من الخط الحدودي مع تركيا، مع تأمين طرق التواصل مع العراق، وإن كانت المناطق التي يسيطر عليها وحده محدودة بالرقة ومناطق في ريف إدلب، لكنه بقي مصدر تهديد أينما وُجد، إلى أن تفجرت الحرب ضده بعد انتهاكات متعددة ضد عناصر من أحرار الشام أثارت الرأي العام، واعتقال العشرات من النشطاء والمقاتلين في مناطق وجود "داعش"، وتمددها على مصالح ومناطق الكتائب المقاتلة (كان أحد الأسباب الرئيسية لسيطرة النظام على السفيرة، استغلال داعش انشغال مقاتلي ريف حلب بالمعركة والتمدد في بلداتهم) ⁴⁶.

ما أفرز الحرب العامة من كل هذه العوامل، هو أن التنظيم حضر في الوعي الشعبي (التوري) كسلطة احتلال غريبة عن المناطق وتستفز المجتمع المحلي، خاصة في ريف حلب وريف إدلب. أما في المنطقة الشرقية، في دير الزور وأقل من ذلك في الرقة، فقد اعتمد التنظيم في تمدده على تحالفه مع البني العشائرية، والشخصيات المحلية، بما يشبه تعامل النظام السوري نفسه، ضمن السياسة الاستعمارية في التعامل مع المجتمعات المحلية التقليدية بواسطة رموزها الخاضعين لها، والمخضعين لمن يتأثرون بسلطتهم الرمزية والمادية⁴⁷. هذه التراتبية ليست هرمية تماماً؛ فرموز المجتمع المحلي تفقد سلطتها الرمزية لصالح التنظيم الذي يتغلغل في الحياة العامة شيئاً فشيئاً، عبر مرجعيته القضائية المطلقة، ومرجعيته الاقتصادية المتمثلة بتوزيع الخدمات وإدارة المدينة، ومع تضييق بعض الحريات الذي يحصل في هذه المناطق، الحريات التي تعني الحياة المدنية أكثر، إلا أن الدولة تعامل مع المحكومين في مناطقها كدولة رعية تمنع رعيتها الخاضعين لسلطتها، والذين لا يشكلون منافساً على السلطة الشرعية أو

⁴⁶ أحمد أبازيد، "الثورة والدولة: في جذور الحرب"، زمان الوصول، 15/1/2014م، انظر: <https://www.zamanalwsl.net/news/45503.html>

⁴⁷ من منظور مشابه، يعتبر Félix Legrand أن تنظيم "داعش" يتبع استراتيجية كولونيالية في تمدده في سوريا، انظر: Félix Legrand, The Colonial Strategy of ISIS in Syria, Arab Reform Initiative, June 2014: <http://www.arab-reform.net/colonial-strategy-isis-syria>



المسلحة. ولعل من الطريف - وإن كان المقام لا يسمح بالطرافه- أن المقاتلين والنشطاء حين يريدون المرور من مناطق سيطرة الدولة وحواجزها، يعتمدون حلق لحاهم وإزالة مظاهر التدين التي قد تشكك عناصر التنظيم بكونهم من فصائل أو انتتماءات لها مواقف ضد "التنظيم"، بحكم أن جميع "الإسلاميين" لهم مواقف ضد التنظيم، في دولة البغدادي - كما في أي دولة شمولية- ليس مسموحًا إلا للمواطن العاري (حسب تعبير كارل شميت)، أو بالأحرى للإنسان الاقتصادي، الإنسان ذي البعد الواحد (حسب تعبير هيربرت ماركوز).

كانت هذه الاستراتيجية السالفة الذكر، من استغلال البنى التقليدية المحلية والتغلب فيها، العامل الموضوعي الأهم الذي سمح للتنظيم أن يسط سيطرته على ريف دير الزور الاستراتيجي، بحكم أن تعريف جبهة النصرة - المنافس الإيديولوجي الرئيس للتنظيم- اتخذ شكلاً عشائريًّا كذلك في الدير، حيث تعتبر بلدة "الشحيل" المعلم الأهم للجبهة في دير الزور، مع وجود معاقل أقل كثافة ومركزية في البوكمال والميادين وعشائر الشعيبات والعشارية، ما جعل سلوكيات الجبهة تعرف عشائريًّا لا إيديولوجيًّا أو مصلحيًّا فقط لدى خصومها، لكن هذه البنية العشائرية لم تمنع من أن يكون "أبو مارية القحطاني" الذي يعود أصله إلى بلدة هرارة جنوبي الموصل، والشرعى العام لجبهة النصرة، هو الشخصية الأكثر كاريزمية وتأثيراً بالنسبة لجبهة النصرة في المنطقة الشرقية، والأكثر حدية في مواجهته وعداوه مع تنظيم الدولة في الان نفسه.

لم يعن هذا أن جبهة النصرة كانت المقاتل الوحيد ضد التنظيم في المنطقة الشرقية، فقد شاركت فصائل تنتهي للجبهة الإسلامية أو مجموعات محلية تحت مسمى "الجيش الحر" في القتال بضراوة ضد التنظيم، يجمعها التضامن العشائري وحماية بلداتها ومواردها النفطية في أرضها.

لكن هذا التضامن العشائري نفسه كان يلعب على الطرفين؛ فبسبب عداوات مع جبهة النصرة وسياساتها في المنطقة الشرقية، وسيطرتها على بعض حقول النفط، اتخذت زعامات عشائرية وألوية بأكملها قراراً بمبايعة تنظيم الدولة، والذي يعطي هامشاً من الحصانة والإمدادات لمن يبايعونه، عدا تسامحه مع الموارد النفطية الصغيرة التي يجنونها بعيداً عن حقول النفط الرئيسية (حقل العمر ومعمل كونيكت لغازهما أهم مصدرين للنفط في المنطقة

الشرقية)، أدى هذا إلى أن مجموعات تنتمي إلى الطرف النقيض والأقصى من الإيديولوجيا الجهادية المتطرفة، التي يعتمدتها تنظيم الدولة في الحشد والتجييش، كانت أول من باع التنظيم.

ولعل أشهر الشواهد هنا هو نموذج "صدام الرخيبة" قائد لواء الله أكبر (التابع لألوية أحفاد الرسول)⁴⁸ في مدينة البوكمال (التي تتوفر على مزاج عام رافض للتنظيم ونمط تدينه وخطابه)، والذي كان قائداً شرّاساً تحت مسمى "الجيش الحر"، واشتهر بتجاوزاته وسرقاته وبتجارته للمخدرات وببطولاته الحربية أيضاً، والذي احتفى بعد صدامه مع جبهة النصرة في البوكمال، وبعد إرسال تنظيم الدولة انتحارياً لتفجير مقره في البوكمال، ليظهر في فيديو يعترف فيه بالمؤامرة على التنظيم وبمبايعته للدولة، ليصبح من قادتها في المنطقة الشرقية في تشرين الثاني 2013 م⁴⁹.

وبالطبع فإن ثمة شواهد عديدة يمكن ذكرها، للتدليل على عامل النكبة وطلب الحصانة الذي دفع عشائر وفصائل لمبايعة التنظيم في المنطقة الشرقية: من مبايعة المجلس العسكري في المحسن، والذي يتشكل من ضباط منشقين وينتمي لهيئة الأركان (التي تكفرها داعش); أو مبايعة حسام الشلوف القيادي في الجيش الحر للدولة، بعد عملية انتحارية قُتل فيها معظم عائلته، واتهمت النصرة بتنفيذها بعد خلافات بينهما رغم نفي النصرة لذلك، ليكون حسام

⁴⁸ كانت ألوية أحفاد الرسول ذات انتشار قطري، وتضم حوالي 56 مجموعة مسلحة، ومن أشهر قادتها الضابط المنشق ماهر النعيمي، بدأت من ريف دمشق ثم انتشرت في المناطق عبر دعم مجموعات قائمة أصلاً لتعمل تحت اسمها، وهي السياسة التي ابتدعها معظم التشكيلات التي أرادت أن تنتشر قطرياً، خاصة مع عدم توفر إيديولوجياً صلبة تضمن هذا الانتشار مثل جبهة النصرة.

ونتعامل تنظيم دولة العراق والشام مع "ألوية أحفاد الرسول" باعتبارها من الأداء والأهداف في وقت مبكر، بسبب دعم الألوية السعودي وبسبب وجوده ضمن مناطق يزيد السيطرة عليها مثل الرقة، حيث هاجم التنظيم مقرات أحفاد الرسول واستمرت الاشتباكات بينهما أسبوع حتى فجر التنظيم مقر الأحفاد الرئيس بسيارة مفخخة في آب 2013م، ما تلاه انسحاب الأحفاد من المدينة.

وبسبب هذا الضعف وعدم وجود بنية تنظيمية صلبة أو إيديولوجياً جامعة، واعتماد "الأحفاد" على الدعم فقط في ضم الكتائب ما يسمح بالتفكير السهل مع توقف الدعم، وتعرضهم لتصدمات قوية كان أحدهما قاتلهم مع داعش، تفككت "أحفاد الرسول" فعلياً، وورثت "جبهة ثوار سوريا" الدعم السعودي للأحفاد وقسمًا كبيراً من الكتائب التي كانت تقاتل تحت اسمهم، كما ورثت "حركة حزم" القسم الأكبر من كتائب الفاروق بعد تفككها، والتي كانت أول من اشتبك مع فصيل جهادي (مجلس شورى المجاهدين) وخطفت قائدته (أبو محمد العبيسي) بداية أيلول 2012م، وهو شقيق (أبو الأثير العبيسي) القيادي في داعش والذي كان "والى حلب" فيها، هنا إضافة للدعم الأمريكي والسعودية الذي تلقته الحركتان عبر صواريخ تاو والمضادة للدروع، ما يفسر عداوة التنظيم لهندين التكتلين بالذات، واستخدامهما لإحراج خصومه الإسلاميين المتحالفين مع "عملاء أمريكا" هؤلاء، كما هو توجه جبهة النصرة والمجموعات السلفية منها أيضًا.

⁴⁹ مجموعة مقابلات خاصة عبر سكايب مع "محمد الخليف"، الناشط الإعلامي ومراسل شبكة شام في دير الزور، ومقابلات عدد من مقاتلي "الجيش الحر" من مدينة البوكمال، طلبوا عدم ذكر أسمائهم.



الشلوف هو والي الميادين بعد سيطرة "داعش" على المدينة بالصلح⁵⁰; أو مبايعة عشائر البكير للتنظيم في وقت مبكر بعد مبايعة "عامر الرفدان" الأمير في جبهة النصرة للتنظيم، وبناء على عداوة تاريخية مع عشائر "العكيادات" الضخمة، التي اتخذ قسم كبير منها موقفاً معادياً للتنظيم ما بين مقاتليها في جبهة النصرة أو الجيش الحر، وكانت مبايعة البكير الأكثر تأثيراً في قوة داعش وقدرتها على التمدد ضمن المجتمع؛ الأمر نفسه بمبایعة الشیخ أسد بن نواف البشير زعيم عشائر "البقارة" للتنظيم، والتي تحمل إرثاً من العداوة مع "العكيادات" أيضاً، قبل أن تبایع فصائل أخرى مكرهة لحماية عوائلها وبلداتها في بداية تموز الراهن، بعد أن أنهكت من قتال التنظيم طيلة سبعة أشهر.

استطاع التنظيم إدارة معركته بنجاح، معركة شراء الولاءات بالترغيب قبل الترهيب، واستغلال التناقضات والصراعات بين العشائر والقوى الثورية، والتي ولد قسم منها في الثورة، ولكن قسماً كبيراً كان سابقاً عليها، ومتضمناً في البنية الاجتماعية العشائرية نفسها، والتي لا يشكلها العامل الإيديولوجي بقدر عوامل أخرى متعلقة بالسلطة الرمزية للعشيرة والتضامن المحلي والمصالح الاقتصادية، هذا بعد تاريخ من التهميش والإهمال الذي مارسه النظام على المنطقة الشرقية لعقود.

دفع أبناء دير الزور، كما دفعت الثورة السورية، ضريبة عدم تبلور عقد اجتماعي وطني على المستوى السوري، أو على مستوى الهوية "الدييرية" وحدها حتى، وعدم نضح بنية العلاقات المحلية والاجتماعية لإنتاج سلطة متواافق عليها كامتداد لهذا المجتمع، تتجاوز التنافس الفئوي وسياسات النكاية بالإخوة، في ظل تعريف السلطة المستمر منذ خمسة عقود كجسد غريب يمتلك بذلك شرعية القهر (الأسد و داعش)، ما ترك مساحة لزعamas عشائرية لأن تضحي ب أساس شرعيتها (التضامن المحلي)، في سبيل السلطة القائمة، أو الصراعات اللحظية، دون تحمل مسؤولية تاريخية أو وطنية على مدى بعيد.

يتداخل العشائري مع النفطي مع الإيديولوجي، وإن كان الثالث هو الأضعف تأثيراً على طبيعة التحالفات والولاءات المتبدلة. وهذه العوامل المتداخلة ضرورية لفهم مآل الأمور الذي انتهى

⁵⁰ مقابلة خاصة مع "ورد فراتي"، ناشط إعلامي من مدينة الميادين، حلب، 15/7/2014م.



إلى سيطرة التنظيم على المنطقة الشرقية، وعلى معظم حقول النفط والغاز والمناطق الزراعية والموارد المائية في سوريا، بالتوازي والتدخل مع تضخمها وتفوقه العسكري.





رابعاً: من جهات النصرة إلى الإمارة

مررت جبهة النصرة بمراحل عده في تشكلها وتطورها، منذ أعلن عن تأسيسها في 24 كانون الثاني 2012 م.

ابتدأت الجبهة من مجموعات جهاديين محدودة العدد ينتهي أغلبهم إلى تجربة "الجهاد العراقي" أو إلى "سجن صيدنايا"، ويمثل "المهاجرون" نسبة كبيرة بينهم، توزعت هذه المجموعات في عدة مناطق (أهمها: درعا، دمشق، حلب، دير الزور)، لتأسيس نواة الجبهة هناك، عبر عمليات اغتيال شخصيات من النظام، أو تفجير مفخخات بمرکز أمنية (عبر التفخيخ عن بعد أو العمليات الاستشهادية)، لتراكم مخزون أسلحتها وشبكات علاقاتها إلى كتائب مصغرة، وتوسيع ومشاركة في عمليات اقتحام تضييف إلى رصيد الجبهة الجهادي في الفضاء العام، وترسخ صورة عن عملها المخطط والمؤثر في النظام، سمح لها هذا بإثبات اسمها ضمن معادلة القتال السورية، واكتساب شعبية تدريجية، بعد التشكيك الشعبي بالجبهة في البداية، ما ظهر من خلال رفض معظم الفصائل المقاتلة لقرار الولايات المتحدة الأمريكية إدراج الجبهة على قائمة الإرهاب في كانون الأول 2012 م.⁵¹

حاولت جبهة النصرة تمثيل التيار السلفي الجهادي في سوريا، وحرست في بداياتها على الاعتناء ارتباطها التنظيمي بالقاعدة أو حضور المهاجرين فيها. وكانت رؤية الجولاني تحمل بعدها تجديدياً وإصلاحياً يتجاوز تجربة "دولة العراق الإسلامية"، التي دعمت تأسيس الجبهة وساهمت فيه، بانحيازه وتأثره الكبير بالمنظر الجهادي "أبو مصعب السوري"، والذي يفترق بشكل حاد عن نهج "أبو مصعب الزرقاوي" مؤسس الأرضية الفكرية والنواة الحركية للدولة، التي تجاوزت حدود التكفير والغلو واستباحة الدم التي كان عليها الزرقاوي نفسه، ولكن هذا الانفراق الإيديولوجي عن دولة العراق الإسلامية والتزعنة التجددية لدى الجولاني لم تكن التوجه العام في الجبهة.

⁵¹ حمزة المصطفى، "جبهة النصرة لأهل الشام: من التأسيس إلى الانقسام"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 21/11/2013، انظر: <http://www.dohainstitute.org/release/331736fa-9bc7-4e05-a232-2ed07f9c1cd2>



ومع تمثيلها لبنيّة جهادية معمولة واعتمادها على كفاءات المهاجرين وخبراتهم، إلا أن الجولاني كان حريصاً على إثبات "سورية" الجهة في القيادات؛ ليؤمّن توفير حاضنة شعبية مستدامة للجهة، ما أسس لقلق في البنية وصراع أجنحة داخل الجهة، بالإضافة للقلق الإيديولوجي. بلغ القلق الهوياتي في جهة النصرة (قلق البنية ما بين الانتماء المحلي والمعولم، وقلق الإيديولوجي ما بين فكر أبي مصعب السوري ومنهج دولة العراق الإسلامية) منتهاه مع إعلان أبي بكر البغدادي دمج جهة النصرة مع تنظيمه، وإعلان "الدولة الإسلامية في العراق والشام" في نيسان من عام 2013م، الإعلان الذي لم يستجب له الجولاني وأعلن بيته للظواهرى.

أدّى هذا الانشقاق إلى انحصار نسبة كبيرة من المهاجرين ونسبة أقلّ -ولكن موجودة- من السوريين إلى طرف البغدادي، وأضعف في وقته قوّة جهة النصرة بشكل كبير وملاحظ، خاصة في المدن مثل الرقة وحلب، ليس بسبب فقدان عدد كبير من العناصر فقط، وإنما لفقد نسبة من مخزونها العسكريّ أيضًا، مع سيطرة الجناح المؤيد للبغدادي على كثير من مقرات الجهة ومستودعاتها.

كانت استراتيجية الجهة، لامتصاص آثار الانشقاق وتجاوزه، المزيد من التقارب وعقد تحالفات مع القوى الإسلامية السلفية خاصة، بحكم المشاركة الميدانية في المعارك أو المشاركة الإدارية في الهيئات الشرعية، والتأكيد على كونها الممثلة للتيار السلفي الجهادي العالمي الأبعد عن الغلو والتکفير والمتصالح مع المجتمع المحلي، مع الحرص على إظهار التمايز عن تنظيم دولة العراق والشام، بالعلاقة مع المجموعات المقاتلة والمجتمع المحلي، وبالاجتهدات الفقهية في مواضيع التکفير خاصة، وترافق ذلك مع استدعاء الجهة كطرف مقبول للتحكيم في النزاعات بين المجموعات المقاتلة، ذات الإيديولوجيا السلفية الواضحة أو بين مجموعات من الجيش الحرّ نفسه أحياناً.

أسهم الاحتقان المستمرّ بين المجتمع المحلي والمجموعات الإسلامية من جهة، وبين تنظيم دولة العراق والشام من جهة أخرى، بمزيد من التقارب والتوطين لجهة النصرة ضمن المعادلة السورية، ما حرصت عليه الجهة والقوى المواجهة لتنظيم الدولة، حتى لا يُحسب خلافها مع تنظيم الدولة على أنه خلاف مع المهاجرين أو مع التيار القاعدي، باعتبار جهة النصرة كحليف



تحقّق عدم وجود مشكلة مبدئية لدى هذه المجموعات السلفية السورية المحلية مع التيار القاعدي، أو مع المهاجرين الذين مازالوا موجودين بوضوح في صفوف الجمّة. ظهر هذا التوطّن لجمّة النصرة ضمن المعادلة السورية بشكل واضح حين وقعت على بيان 13 المتعلق بشان سوري داخلي هو سحب الثقة من الائتلاف الوطني.

أضُعف قيام تنظيم "دولة العراق والشام" جمّة النصرة على مدى قصير، ولكنه أُسهم في مزيد من الاتساق الداخلي لدى الجمّة ومزيد من التوطّن ضمن المعادلة السورية ما زاد من قوّتها على المدى الأبعد⁵².

استطاعت جمّة النصرة تجاوز أزمتها بالتدريج مع إعادة بناء شبكات العلاقات والتجنيد، وتزايد انضمام كتائب محلية إليها، خاصة لكونها تمثل مساراً سلفياً جهادياً بدليلاً عن "تهاون" الجيش الحر أو "تطرف" داعش، وحرّقت الجمّة على ثبيت هذه المرجعية الرمزية لتمثيل القاعدة والتيار السلفي الجهادي، لتعود خلال أشهر إلى عنفوانها القتالي.

اعتمدت الجمّة على لا مركبة إدارية بناء على فكرة أبي مصعب السوري عن خلايا المقاومة الإسلامية وتعدد الأنوية، ولكن كان التنسيق مستداماً مع القيادة العامة لاتخاذ مواقف متّسّهة، وتبني منهج فكري متّسق، من خلال إصدارات مؤسسة المنارة البيضاء التي تنشر أخبار فروع النصرة، ومن خلال كلمات قائد الجمّة الذي يبلور تعريف الجمّة لنفسها، ويعدّ موضعها في سياق الجماعات الجهادية.

لكن هذا الاتساق الذي ظهر بافتراق الجماعة عن دولة البغدادي تعرض لتحديات أربكته وأظهرت التنوع الذي يخفيه: تحدي المنهجية الفكرية في التعامل مع الإسلاميين الأقل قرّباً من "السلفية الجهادية"، ورؤية الجمّة للمشروع السياسي القادر، وتحدي التنسيق الميداني ما بين فروع الجمّة ومدى اعتمادها على استراتيجية موحدة تجاه تحالفاتها مع الفصائل الأخرى، أو (وهو الأهم) تجاه المعركة مع داعش.

⁵² أحمد أبازيد، "ماذا أراد الجولاني"، زمان الوصل، 30/12/2013م، انظر: <https://www.zamanalwsl.net/news/44902.html>



في التحدي الأول تبلورت خطابات فكرية متنوعة في الجهة مع الوقت، ومع اعتماد قادة ومنظرين في الجهة على صفحاتهم الشخصية في توسيع للتعبير عن آرائهم، بعدما كانت إصدارات مؤسسة المنارة البيضاء هي الطرف الوحيد المخول بالتعبير عن آراء الجهة (ما كفل لها القدرة على إنتاج "جماعة متخيلة" متسقة من الجهة وأنصارها في الفضاء الافتراضي العام). ولم يتوقف تعدد الآراء المعبرة عن الجهة على الحسابات الشخصية، بقدر ما امتد تنظيمياً إلى فروع النصرة التي أصبحت تصدر بيانات باسم مناطقها (كما فعلت جبهة النصرة في درعا أو دير الزور)، دون الالتزام بإصدارات المنارة البيضاء كمرجعية وحيدة.

وبدا هذا التمايز واضحاً في الآراء من "ميثاق الشرف الثوري" في 17 أيار الراهن، ما بين من اعتمد خطاب "التنازل والانبطاح" في توصيف الموقعين على الميثاق، وهو أقرب إلى الجيل القديم الذي يحمل إرث خراسان، والأقل تأثراً بمدرسة أبي مصعب السوري والأقل نقدية تجاه أبي مصعب الزرقاوي، وما بين مواقف نقدية أكثر تصالحاً وهدوءاً، وينتمي للنزعية التجددية داخل الجهة، والتي تطمح لتوطين الجهة ضمن المعادلة السورية كطرف إسلامي بين أطراف عدة، لا كمرجعية شرعية وحيدة مخالفة للأخرين، وهو التيار الأقرب لرؤية الجولاني نفسه كما ظهرت من خلال مقابلته على الجزيرة⁵³.

يمكن تمييز تيارين رئيين ضمن الجهة من ناحية الخطاب الفكري والسلوك العملي تجاه المشاريع الإسلامية الأخرى: يمثل الأول شرعى النصرة في درعا د.سامي العريدي (وهو أردني الجنسية)، ويمثل الثاني أبو ماريا القحطاني الشرعى العام لجبهة النصرة، والمسؤول الشرعي في المنطقة الشرقية (وهو عراقي).

لم يظهر هذا التمايز في الخطابات الفكرية فقط، والتي تتعلق بحدة انتقاد المشاريع الإسلامية الأخرى، أو الرؤية السياسية المعلنة، بقدر ما ظهر أكثر من خلال سياسة النصرة المختلفة ما بين دير الزور ودرعا، وبينما حرص القحطاني على حل نزاعات النصرة مع العشائر المختلفة، وأن تكون النصرة متعددة اجتماعياً وعشائرياً رغم تركيز ثقل النصرة في الشحيل بطبيعة الحال. كانت سياسة النصرة في درعا أكثر استفزازاً وأقلّ مراعاة للجيش الحر أو البنية

⁵³ أحمد أبازيد، "مسارات الإسلاميين السوريين الصعبة"، منتدى العلاقات العربية والدولية، 26/5/2014م، انظر: <http://fairforum.org/?p=1882>



العشائرية، وأقل حرصاً على التوافق مع قوى إسلامية أخرى، ما ظهر من خلال تحكم النصرة بالمحكمة الشرعية (التي تُدعى محكمة الكوبرا)، واعتقال عناصر وقيادات من الجيش الحر دون مراعاة للبعد العشائري والمحلّي لهذه الاعتقالات، خاصةً أن نسبة كبيرة من قضاة النصرة وقياداتها في درعاً أردنيون، ما راكم قدراً من الاحتقان المسكوت عنه في الجبهة الجنوبية التي ما زالت الأبعد عن صراعات الشمال، والأكثر تحقيقاً لتقديم ميداني مستمر على النظام السوري.

وما أسمهم في هذه السياسة، ليست رؤية سامي العريدي شرعى النصرة أو "أبي جليبيب" أميرها في درعاً وحسب، بقدر ما زاد من ذلك أن النصرة في درعاً لم تتعرض للفرز نفسه الذي تعرضت له النصرة في الشمال مع إعلان الدولة، حين انحاز المقاتلون الأكثر تشدداً نحو الدولة. وبالنسبة للتحدي الثاني، فقد ظهر أكثر مع مواجهة "داعش"، واختلاف آراء فروع النصرة في مواجهتها من عدمه، بينما يصرّ أبو ماريا القحطاني أن قتال "الخواج" أولوية يجب أن يشتراك فيها الجميع، وإلا ستقتضي على المشروع الجهادي⁵⁴. يصرّ أمير جبهة النصرة في القلمون "أبو مالك الشامي" أن من يعتدي على جماعة الدولة في القلمون فهو يعتدي على النصرة⁵⁵، وقرباً منه في الغوطة الشرقية تصدر النصرة قراراً باعتزال الحرب التي أعلنها جيش الإسلام ضد "داعش"، والموقفان الأخيران بعد خسارة النصرة حوالي مائتين من عناصرها وقادتها في المنطقة الشرقية.

ونقلت حرب النصرة وداعش في المنطقة الشرقية، بكلفتها الدموية وما لاتها المفجعة، سياسة اللامركزية الإدارية إلى انتفاضات تنظيمي وتنسيقي، تم تفسيره لدى الجبهة في المنطقة الشرقية على أنه "خذلان" وتواتر من قبل فروع النصرة في حلب وإدلب، ومن قبل القيادة العامة للنصرة نفسها.

⁵⁴ يمكن الاطلاع على موقف "أبو ماريا القحطاني" من خلال سلسلة التغريدات المجموعة له، بعنوان: نداء من أبي ماريا القحطاني لأهل العلم وقادة الجهاد، انظر:

<http://twitmail.com/email/263225101/36/>

⁵⁵ اشتهرت كلمة "أبو مالك" هذه في نقاشات الجهاديين، فأصدر بياناً توضيحيّاً بعنوان: موعظة وبيان لما جرى به اللسان، انظر:

<http://justpaste.it/fv6p>



أي إن السياسة التي اعتمدت عليها الجبهة في تمدها أصبحت مع تعرّضها لرهان وتحدد وجودي عاملًا يهدد بتفككها.

إن رهان الوجود الذي تتعرض له الثورة السورية، تتعرض له جهة النصرة أيضًا، مع غياب الجولاني لفترات طويلة، ومسؤولية الشرعيين والأمراء في كل منطقة عن سياساتها التي قد تختلف عن منطقة أخرى، وقد تتصادم معها أو "تخذلها"، لتصل إلى تهديد الجبهة نفسها بالتفكك، وتحولها التدريجي إلى اسم رمزي جامع شبيه بـ"الجيش الحر" قديماً.

الإماراة: خطة الإنقاذ

ومع وعي قيادة النصرة لهذه السيرورة نحو التفكك، والتخوف من انحياز مزيد من المقاتلين نحو الخلافة التي أعلنت حديثاً بما تحمل الكلمة من طاقة ورمزية وجданية؛ ظهرت كلمة الجولاني المسربة في 11 تموز 2014⁵⁶، ليعلن فيها أنه "آن الأوان لإقامة إماراة إسلامية على أرض الشام"، الكلمة التي أثارت بركاناً من الجدل وردود الفعل، فيما بدا كجسّ نبض قبل إصدار إعلان رسمي، الإعلان الذي صدر بعد يوم واحد من الكلمة عن مؤسسة المنارة البيضاء⁵⁷، والتي ربطت مشروع إقامة الإمارة بكونه "في اليوم الذي يوافقنا فيه المجاهدون الصادقون والعلماء الربانيون"، وجعلت المشروع المرحلي هو "إقامة دور للقضاء ومراكز حفظ الأمن، وتقديم الخدمات العامة للمسلمين في غضون عشرة أيام بدلاً عن الهيئات الشرعية السابقة".

كان هذا الظهور الأول من نوعه على الإعلام مقصوداً لنفي الشائعات عن غياب البغدادي، وإعادة إحياء مشروع الجبهة ومركزيّة القيادة من جديد، تكلم الجولاني عن "جيش موحد" لإقامة الإمارة ومحاربة اليهود بعد القضاء على "النصيرية والخوارج الذين يمنعوننا من قتال اليهود"، وخطاب جنوده أن "دماء شبابنا ليست دجاجًا"، وأن "اليد التي ستمتد على جنودنا سوف تُكسر"، وأنه "لن نسمح لأحد أن يسرق ثمرة جهادنا".

⁵⁶ سرّيب لكتبة الفاتح الجولاني حول إقامة إماراة إسلامية، انظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=UrvlzKb2BU4>

⁵⁷ بيان توضيحي حول ما أشيع عن إعلان جهة النصرة إقامة إماراة إسلامية، مؤسسة المنارة البيضاء، 12/7/2014، انظر:

<http://justpaste.it/g7bl>



كان خطاب زعيم جبهة النصرة الشاب، خطاب قوة بامتياز، شبيهاً بخطابات الزعماء القوميين الذين يبثون الكربلاء في شعوبهم لتكوين جبهة قوية ضد التصدعات الداخلية أو الجمات الخارجية. تقصد الجولاني تأكيد تعريف "الذات" المتمثلة بمشروع الجبهة المركزي والموحد (بعد فرقة النساء)، من خلال تعبيئة العناصر بتمثيلهم للجهاد وتطبيق الشريعة، وخطاب القوة والتمكين، ليأخذ بيتهم على "مشروع الإمارة" و"الجيش الموحد".

أعاد الجولاني بذكاء في كلمته بناء الجبهة كمشروع متماسك وكجماعة متخيلة، واستخدم في خطابه طاقة حماسية عالية للتغلب على روح اليأس التي أشاعتها خسارة المنطقة الشرقية، وفرض مشروعًا مقابلاً للخلافة (ولو كشعار رمزي للحشد والتعبيئة)، يسقط الشرعية عنها ويعطيه من جهة شرعية رمزية يراهن عبرها على انضمام "المهاجرين" والمقاتلين السوريين، الذين لا يقنعهم سقف شعارات الجبهة الإسلامية، في جوّ معنباً بالازدياد على تطبيق الشريعة، وسهولة طرح الشعارات والانجرار خلفها من قبل الشباب المتسلفين حديثاً في غالبيتهم. ومن جهة مقابلة شرعية شعبية من خلال التطبيق العملي (ذي السقف الأقل ارتفاعاً وجذرية) للمشروع عبر المحاكم الخاصة ومراكز حفظ الأمن وملاحقة الكتائب الفاسدة.

أظهر الجولاني مرونة سياسية في تحالفاته، وذكاء عالياً في التخطيط الحركي، ويشهد له حتى خصومه في "دولة البغدادي" بشخصيته الكاريزمية ودهائه، كما تجلّى ذلك عبر تحالفاته ومسارات حركة الجبهة، وتطرح هذه الخطة تبديلاً في خريطة التحالفات نحو التركيز أكثر على المهاجرين والتيار السلفي الجهادي، والذهب مباشرة نحو الحواضن الشعبية، بلا واسطة الفصائل المحلية أو أولوية التنسيق والتحالف معها بعدما اتضح أن لها مشروعًا سياسياً يفرض مسارات مغايرة للجبهة، وقد لا تضمن لها أماناً أو ظهراً حامياً على المدى البعيد. هذا الانقلاب في رهانات التحالف يوازيه انقلاب في بنية الجبهة نفسها، لتعزيز مركزية القيادة، مقابل اللامركنية التي اعتمدت عليها الجبهة في تمدها الأول، ثم أصبحت عاملاً يسهم في ضعفها، في ظل تكثيف العناصر السلفية الجهادية وايديولوجيا تطبيق الشريعة، وتمثيل مشروع الجهاد وتکفير الخصوم في خطاب الجبهة، ويمكن قراءة الانقلابين كمحاولة استفادة واقتباس وتعديل من عوامل قوة "داعش".



وتحاول النصرة في الفترة القادمة الاستفادة من خسائرها في المنطقة الشرقية، لتعزيز موقعها في درعا والقلمون جنوبياً وحلب وإدلب وريف حماة شماليّاً، حيث توجه المنسحبون من دير الزور (وأغلبهم في درعا)، وتأسيس خط سيطرة متصل شماليّاً ما بين ريف حلب الشمالي وريف إدلب وريف حماة، ما قد ينذر بصراعات قد لا تكون بجذريّة الصراع مع داعش، ولكنها أيضًا قد لا تكون صراعات خطابيّة فقط مع الجيش الحر في تلك المناطق (جبهة ثوار سوريا وحركة حزم خاصة)، والذي يشمل الجبهة الإسلاميّة نفسها، فيما لو أصرت النصرة على مهاجمة كتائب تابعة لكتائب كبرى بمعزل عن مرجعية قضائيّة مشتركة، المرجعية المشتركة التي تقوض مشروع المحاكم المستقلّة الذي طرحته كجذر عملٍ لمشروع الإمارة.

في هذا الارتباك العام، وسياسة خلق صراعات جديدة لامتصاص الآثار السلبية للصراعات القديمة، فإن نجاح خطة الجولاني وقدرة النصرة على النفاذ من مأزقها الراهن أمر يتتجاوز الذكاء.





خامسًا: الثورة السورية في ميدان مرتكب

على خلاف ما توقع البعض متسعين أن معارك العراق ستكون أولوية لدى التنظيم تشغله عن توسيعه في سوريا؛ فإن سلوك التنظيم كان مصراً على التمدد في سوريا بالتوازي مع تمدده في العراق، وبدرجة من العنف قد تتفوق على عنف معاركه مع قوات المالكي، والتي انسحب أكثراً دون مواجهة مع التنظيم في الموصل وصلاح الدين، ما ألقى بظلال من الشك حول رشوة ضباط الجيش الحكومي العراقي، أو تسهيل الحكومة نفسها لسقوط الموصل بيد التنظيم، التكهنات التي لا يمكن إثباتها بعد. ولكن الثابت أن سياسات حكومة المالكي الطائفية وفرت الشرط الموضوعي لشرعية وواقعية خطاب داعش وقبوله الشعبي. وفي الان نفسه، توفر سيطرة التنظيم على مراكز الاحتجاج والثورة السنية في العراق الشرعية الدولية والواقعية الموضوعية لأي تحرك عسكري ضد هذه المناطق، وتوصيف "الحركي السني" المعارض لحكومة المالكي بكونه حرّاً إرهابياً لا مطالب سياسية وشعبية.

أعطت انتصارات العراق دفعاً لتمدد التنظيم في دير الزور إلى أن سيطر على كامل الريف والجزء الأكبر من الجزيرة السورية، ليبدأ بالتوازي مع ذلك معركته في ريف حلب الشمالي عبر بوابة أخترين، في المناطق التي طرد منها خلال أيام فقط بداية هذا العام، ويعود إليها بترسانة عسكرية أثقل وتمويل أضخم وعمق جيو-استراتيجي أوسع بمساحات شاسعة من المناطق التي يسيطر عليها خصومه في الثورة السورية⁵⁸.

مراحل الثورة السورية المسلحة

مررت الثورة السورية المسلحة بمراحل عدة، يمكن أن نميز ثلاث مراحل (بالطبع يمكن أن تكون هناك تقسيمات أكثر تفصيلاً) ونسردها باختصار لتوضيح المشهد الميداني الأخير:

- ابتدأ حمل السلاح في مراحل مبكرة من الثورة، لكن كحوادث فردية لم تتطور إلى اتجاه عام إلا مع صيف 2011م، تطور هذا الحراك كامتداد مسلح للمجتمع المحلي قبل أن يتطور

⁵⁸ أحمد أبا زيد، "الانعكاسات السورية للحدث العراقي"، منتدى العلاقات العربية والدولية، 26/6/2014م، انظر: <http://fairforum.org/?p=2031>



لتشكيّلات أكثر تنظيماً وأدلة. وفي الربع الأول من عام 2013م كان الثوار السوريون قد استطاعوا السيطرة على الجزء الأكبر من ريف حلب وإدلب ودمشق ودرعا ودير الزور، وسيطرة جزئية ضمن مدن دمشق وحمص ودير الزور ودرعا، وسيطرة كاملة على مدينة الرقة، رغم تضخم حجم الضحايا والدمار والفارق النوعي في موازين القوة، إلا أن التقدم الواضح للثوار وصل إلى تهديد النظام وتطويقه في العاصمة نفسها، حين كان الصراع ذا طابع وطني من طرف الثوار أو النظام، مع استثناءات لا تغيير الطابع العام بوجود أعداد قليلة من "المهاجرين" المنتسبين لتيار السلفي الجهادي في صفوف الثوار، أو ضباط الحرس الثوري الإيراني وقيادي حزب الله في طرف النظام. شهدت هذه المرحلة إذن سيطرة الثوار السوريين.

- في المرحلة الثانية الممتدة منذ الربع الثاني لعام 2013م حتى سقوط الدير في منتصف 2014م، اجتاح الثورة السورية تدخّلان: الميليشيات الشيعية المدعومة من إيران من جهة، وتنظيم دولة العراق والشام من الجهة المقابلة.

كان قد بدأ ضخ المقاتلين الشيعة بشكل منظم وضمن فصائل منذ آب 2012م، وينتمي معظمها إلى العراق ثم إيران وأفغانستان، إضافة إلى التدخل النوعي من قبل حزب الله اللبناني، لكن هذا التدفق بدأ بقلب المعادلة مع آذار 2013م، حين دخل حزب الله اللبناني بقوة في معركة القصير، وببدأت الميليشيات العراقية تصبح القوة الأكبر في جنوب دمشق وتتمدد نحو ريفها، واستطاع النظام بمساعدة الميليشيات الشيعية استعادة أحياء جنوب دمشق وبلدات من ريف دمشق، إضافة إلى القلمون في الجهة الجنوبية وجزء كبير من ريف حمص في الجهة الوسطى، واستعادة بلدات ريف حلب الجنوبي في الجهة الشمالية، ليعود للنظام السيطرة على المنطقة الوسطى والعاصمة.⁵⁹

أعلن عن التنظيم -كما سبق القول- في نيسان 2013م، ليشتت جهود الثوار السوريين منذ ذلك التاريخ، ويخلق أكبر صراع عصف داخل الثورة السورية وأكثر دموية وتأثيراً، ولينتهي به

⁵⁹ للتوسيع حول الميليشيات الشيعية في سوريا، انظر: الميليشيات الشيعية في سوريا: انتشارها، مجموعاتها، أبرز حوادث التطهير الإثني التي قامت بها (دراسة)، الشبكة السورية لحقوق الإنسان، 5/7/2014م، انظر:

http://sn4hr.org/public_html/wp-content/pdf/arabic/she3a.pdf

المطاف في نهاية كانون الثاني 2014م إلى السيطرة المطلقة على الرقة (مع وجود عدة قطع عسكرية للنظام) وبلدات (المنبج وجرابلس والباب) في الريف الشرقي لحلب.

انهت هذه المرحلة إذن بتقلص سيطرة الثوار إلى دير الزور في المنطقة الشرقية، وقسم كبير من ريف حلب وريف إدلب وأجزاء من الساحل في الجهة الشمالية، ومناطق شبه محاصرة في الجهة الوسطى، والغوطة الشرقية وبلدات في الغوطة الغربية من ريف دمشق، وسيطرة متقدمة للثوار في درعا ضمن الجهة الجنوبية، لتكون سيطرة الثوار على جزر متقطعة وغير موصولة (تقطع داعش الاتصال ما بين الجهة الشمالية والشرقية، ويقطع النظام الاتصال ما بين الجهة الشمالية والوسطى) ولا تمتد على مساحات شاسعة، في مقابل تنظيم داعش الذي يسيطر على مساحات شاسعة ومتصلة، ومقابل النظام والمليشيات الشيعية الذين يسيطرون على مساحات شاسعة ومتصلة وعلى معظم طرق الإمداد.

- المرحلة الثالثة منذ بداية النصف الثاني من عام 2014م، مع سقوط دير الزور بيد تنظيم "داعش"، وتقدم النظام نحو حصار حلب. مع هذه المرحلة تسيطر "داعش" على المنطقة الشرقية كاملة، وعلى معظم الموارد النفطية والمائية والزراعية في سوريا، وتسيطر على مساحة شاسعة تمتد من الموصل وصلاح الدين والأبيار في العراق، إلى دير الزور والرقة وأجزاء من الحسكة وريف حلب الشرقي في سوريا، وتمدد تجاه ريف حلب الشمالي عبر بوابة أخترين، بينما يتمدد النظام من مدخل حلب الشرقي في المدينة الصناعية (الشيخ نجار)، دون أن يشتبك التنظيم والنظام في مناطق التقارب وحتى التماس، لتقع حلب ضمن تهديد حصار مزدوج.

يتبقى للثورة السورية مشتقة الفصائل والقرار والانتمامات في هذه المرحلة أجزاء من مدينة حلب وريفيها، مهددة بالحصار من الشرق والشمال، وبقطع طريق الإمداد الأهم من معبر باب السلامة الحدودي مع تركيا، ومناطق من ريف إدلب متصلة بمعبر باب الهوى الحدودي مع تركيا، وأجزاء شبه معزولة من الساحل، بينما تقع الغوطة الشرقية تحت حصار عنيف من قبل النظام والمليشيات الشيعية، لم يخفف منه بشكل دراماتيكي انسحابات بعض المليشيات الشيعية نحو العراق، والقسم الأكبر -غير المتصل بدمشق- من درعا والقنيطرة. تفقد هذه المناطق المساحات الشاسعة والممتدة، وتفقد مواردها الذاتية من النفط أو الماء أو



القمح، وتعاني من قطع طرق الإمداد والحصار المزدوج، في مقابل قوتين منظمتين وبجهود مرگزة وخطط استراتيجية محكمة، وبموارد ودعم ضخم لكلّ منها وبمساحات شاسعة ومتصلة وتتمدد، والأهم من ذلك بقبول دولي بهمنتهم على المشهد.

عوامل ضعف الفصائل المقاتلة

أسهمت في ضعف الثورة السورية المسلحة وتراجعها عوامل متداخلة ذاتية وموضوعية:

- التشتت الذاتي: فيما بين فصائل الثوار وعدم القدرة على الوصول إلى جسم عسكري تنظيمي موحد، سواء في ذلك التجارب الخارجية التي مثلت آخرها هيئة الأركان، أو التجارب الداخلية التي كان أضخمها مشروع الجبهة الإسلامية، والذي أسس لمرحلة من التحالفات والجهات العسكرية الموازية أو المنافسة له. كرس هذا التشتت الخلافات الفكرية ما بين الجماعات الإسلامية، إضافة إلى مصالح الداعمين الذين يستفيدون سياسياً من عمل الفصائل التي يدعمونها، وتケفل لهم تمثيلاً وتأثيراً عسكرياً قد يُفتقد فيما لو قام جسد عسكري موحد، إضافة إلى مصلحة قادة كثير من الفصائل في استلام دعم مستقلّ، أو التصرف بمعزل عن رقابة أو محاسبة قيادة موحدة، ما سمح ببروز ظاهرة أمراء الحرب إضافة إلى الكتائب الجنائية، دون أن تهمش تأثير التنافس على الرأس المال الرمزي الذي تمنحه هالة القيادة لصالح التأكيد على الرأس المال المادي المكتسب من هذا التشتت، عدا أن نسبة لا بأس بها من الفصائل المسلحة توقفت عن القتال، أو ترك قسم كبير من مقاتليها السلاح لصالح أعمال اقتصادية في سوريا أو دول اللجوء، أو بتأثير القتال مع "داعش" الذي شكل "فتنة" يجب اعتزالها بالنسبة لفئة من المقاتلين الشباب، أو لصالح الاكتفاء بالسيطرة على مناطق محلية محدودة، أو تأمين موارد اقتصادية بتجارة النفط أو المخدرات أو المسروقات.

- التشتت الموضوعي: أدت النقطة السابقة إلى أن الفصائل الفاعلة ميدانياً والمقاتلة لا تشكل النسبة الأكبر بين الجماعات المسلحة، وأن هذه الفصائل يقع على عاتقها العبء الأكبر من مواجهة النظام السوري والتحالف الإقليمي المقاتل معه، إضافة إلى مواجهة تنظيم دولة العراق والشام.



- يتبع النقطتين السابقتين عامل ضعف التسليح والدعم، والذي يعقد أكثر مشهد الفصائل المشتتة أساساً، والتي تواجه القوة الجوية والمدفعية هائلة الوفرة للنظام السوري والقوات غير النظامية والميليشيات الشيعية المقاتلة معه، ما يسمح له بالسيطرة على مساحات مفتوحة، مثل خناصر والمدينة الصناعية في حلب، وتواجه قوة مدفعية عنيفة لتنظيم "داعش" يوازنها قوة المفخخات والانتحاريين، بينما تعاني هذه الفصائل نفسها من نقص في القوة المدفعية والصاروخية، ومن شبه انعدام في وسائل مقاومة الطيران.

ومع انسحاب جبهة النصرة التدريجي من جهات مدينة حلب، تتضاءل أكثر احتمالات سيطرة قوات المعارضة على مدينة حلب، بحكم أن "الاستشهاديين" كانوا من يفرضون توازن رعب مع التفوق المدفعي للنظام.

- غياب الاستراتيجية القتالية والإدارية على المستوى القطري: في المرحلة الأولى من الثورة المسلحة اعتمد الثوار على حماية المدن التي قامت فيها المظاهرات وتحرك النظام لقمعها، وبعد أن استطاع النظام السيطرة على هذه المدن، كان الهدف هو إعادة السيطرة على هذه المدن وطرد النظام منها بهدف "تحريرها". أثبتت سياسة تحرير المدن بمعزل عن القطع العسكرية المحاطة بها ضالة جداً، وثقل كلفتها البشرية والمادية. تحرك الثوار بعد ذلك للسيطرة على القطع العسكرية لأسباب تتعلق بالحصول على الغنائم العسكرية، إضافة إلى كونها تمثل وجود النظام الحقيقي والذي يتحقق إسقاطه عبرها، لكن لم تنشأ استراتيجية قتالية موحدة ومنسقة لا على المستوى القطري، ولا على مستوى الجهات الجغرافية (الجنوبية، الشمالية، الوسطى... الخ)، مقارنة بجبهة النصرة التي كانت عمليات تسير بتنسيق عالي في بدايتها، أو مقارنة بالنظام الذي زادت قدراته التخطيطية بعد التدخل الإيراني الكبير الذي حصل عام 2013م، أو مقارنة بتنظيم دولة العراق والشام الذي أثبت مقدرة تخطيطية عالية ومتکاملة على مستوى أهدافه.

- اللامركزية -الأشبه بالفوضى- للتنظيمات العسكرية، وتمددتها غير الممأسس، والقابل للتبدلات وانشقاقات مستمرة، بالتوازي مع ضعف التعويل على المؤسسة المنفصلة عن رمزية القائد الجامعية؛ ما أضعف فاعلية الكثير من القوى العسكرية على المدى البعيد، رغم أنه سمح لها بالتوسيع في البداية، في مقابل استفادة تنظيم دولة العراق والشام من مرکزية



القيادة ومن وجود القادة. يمكن النظر إلى لواء التوحيد كتجربة تأذت كثيراً من فقدان القيادة الرمزية مع وفاة قائد "عبدالقادر الصالح"، وإلى أحرار الشام كتجربة أثرت سلباً عليها لامرkinية القيادة، لتضعف عسكرياً بشكل واضح في حلب، في مقابل جيش الإسلام الذي حافظ على تماسته وفاعليته العسكرية مع مركزيته القيادية وجود القائد الرمزي.

تهديد الوجود

تعاني الثورة السورية المسلحة في سيطرتها الميدانية، في هذه المرحلة، من تهديد وجود حقيقي للمرة الأولى منذ بدأت في 18 آذار 2011م، انصب الاهتمام الدولي الشكلي على الغلاف السياسي والمدني للثورة، والمنفصل عن وجودها الميداني المترافق والذي يمنح وحده الثورة وجوداً واقعياً. ولم يتتوفر للثورة حاضن إقليمي يتبنى وجودها قبل حسم قضيتها، وشجّعت سياسة دعم المنظمات المدنية على سحب مئات وألاف النشطاء والمقاتلين نحو تركيا؛ ما ضاعف ذلك إهلاك المقاتلين من القتال الطويل، وضعف المعنويات العام مع تقدم داعش في المنطقة الشرقية، وتقدم النظام في المنطقة الشمالية والوسطى والجنوبية، وتشجع سياسات المالكي الطائفية على منح المشروعية الموضوعية لسردية داعش وتمددها الميداني، ما يتواافق مع أولوية مكافحة الإرهاب لدى المجتمع الدولي، واقتئاعه بتحويل سوريا إلى محقة للإرهابيين ومنفى لأزمات المنطقة.

سادساً: المآلات الصعبة

ليس ممكناً التنبؤ بآلات حاسمة أو دراماتيكية في الصراع الدائر، خاصة أن التوجه الدولي نحو تكريس القضية السورية والعراقية كـ"أزمات بلا حل"، وكمحرقة للإرهابيين، والذين باتت سوريا أكبر تجمع لهم في تاريخ التيار الجهادي، ما يتبع إمكانية نادرة لتجميع المعلومات المخبراتية، خاصة مع مساعدة صراعات التيارات الجهادية في ذلك، واستغلالها لهذه الحاجة المخبراتية الأمريكية في إخراج خصومها وتعريضهم للخطر، ما ظهر من خلال التسريبات المتبادلة لكل من جبهة النصرة وتنظيم "دولة العراق والشام" عن قيادات الطرف الآخر.

يسق ذلك مع إصرار الحلف الإقليمي الداعم للثورات المضادة، على عدم السماح بمشروع يمثل العرب السنة سياسياً، ما دام هذا التمثيل السياسي اتجه -عبر التجارب الديمقراطية- نحو الإسلام السياسي، وتشجيع صورة البديل المتمثل بالحركات السلفية الجهادية والفووضى الأمنية، لتكريس استقرار داخلي، قد يتعارض مع توجهها نحو تحجيم النفوذ الإيراني المتزايد في المنطقة.

هذا الارتباك العام وتناقض الأهداف، يعني منه المحيط الإقليمي بالتوازي مع معاناة الثورة السورية المسلحة، ما بين الحرص على التحالف الميداني مع التيارات السلفية الجهادية المؤثرة في المعركة، وما بين الحرص على حدّ من الخطاب والعلاقات قابل لتوفير دعم أو حاضن إقليمي، وهو الارتباك نفسه الذي عانت منه جبهة النصرة ما بين نيتها التوطن ضمن المعادلة السورية، والتحالف مع الإسلاميين السوريين الذي يكفل لها حاضناً ضد مشروع استئصال دولي، وما بين خسارتها الميدانية مقابل داعش وتسرب فئات من المقاتلين نحوها؛ نتيجة إغراء الخطاب الراديكالي لدى تنظيم الدولة، والذي لا يمكنها منافسته دون إرباك علاقتها مع الفصائل المحلية، هذا الارتباك الذي لم ينج منه سوى تنظيم "دولة العراق والشام" الذي يبدو أنه الوحيد الذي يحقق نجاحاً وتمدداً على الأرض.



ورغم توقع باحثين محاولة تمدد التنظيم واستهدافه لدول الجوار⁶⁰, إلا أن أولويته في هذه المرحلة ستكون تثبيت سلطته في المناطق التي سيطر عليها حديثاً في سوريا، والتي لها أولوية على العراق بحكم صعوبة حفاظه على مناطقه في العراق فيما لو شنت ضده هجمة مرّكة، وإدماج القوى التي بايعته حديثاً في دير الزور في بنية الصلبة؛ تحسّباً لانتفاضتها عليه، أو تشكيلها خلايا نائمة، إضافةً لمحاولة حصار الثوار حلب عبر التمدد في ريف حلب الشمالي. أما جبهة النصرة، التي حاولت الموازنة ما بين المحلي والعالمي، وما بين الانتقام القاعدي والتحالف مع الفصائل الإسلامية المحلية، فمع فشل رهانها على التحالف "السياسي" مع المجموعات السلفية السورية والتكتلات العسكرية الإسلامية الكبرى، وغير المنتمية للتيار السلفي الجهادي، إضافةً لتفككها الداخلي وفشلها الميداني أمام دولة العراق والشام، ففضلت أن تلّجأ إلى تقوية الرهان على الخطاب السلفي الجهادي (الأصل)، وتحالفاتها مع المهاجرين بالتواري مع تسريع خطوات نفوذها الميداني على الأرض، من خلال سياسة تنظيم "داعش" نفسها، ولكن بثواب إصلاحي وأكثر مرونة، في التقرب إلى الحواضن الشعبية من خلال محاربة الكتائب الفاسدة وال مجرمين، وإقامة محاكم شرعية ومراكز حفظ أمن مستقلة، لتوسيع في تجربة "درعا" نحو ريف حلب الشمالي مبدئياً، ولتعيد ترميم البيت الداخلي، في ظل غياب مشروع منافس لدى الجبهة الإسلامية والمحالفين معها.

ولا يبدو أن كتائب المهاجرين أو فروع السلفية الجهادية في سوريا ستضع نفسها بين ثنائية النصرة والدولة فقط، خاصة مع عدم تدخل الظواهري في قرارات حاسمة بشأن المشاريع السياسية في سوريا، ما يbedo أن تحالفًا موازيًا قد ينشأ بين من يفضل اعتزال "صراع الإخوة الأعداء"، وما يحسم هذا الأمر هو قرار "جيش المهاجرين والأنصار" البيعة للنصرة أو تأسيس تحالف جديد.

مع ذوبان طاقة الحشد والتعبئة لرمزية "الجيش الحر"، زاد الطلب على الخطابات الجهادية والإسلامية كإيديولوجيا، بعد أن كان الإسلام يحضر كبعد روحي هوّيّاتي، واتجهت مجموعات سلفية وأخرى تنتهي لتيارات إسلامية سياسية أو تقليدية أن تتوحد في جهات، وشكل قيام

⁶⁰ تشارلز ليستر، ما الخطط المستقبلية لتنظيم داعش؟، bbc، 28/6/2014م، انظر:

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2014/06/140628_isis_future_analysis.shtml



الج جهة الإسلامية، كمشروع سلفية وطنية (في بدايته)، حافزاً لقيام مشاريع إسلامية موازية أقل سلفية وأقرب للتيار الإخواني والمدرسة الشامية (جيش المجاهدين، الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام، فيلق الشام)، ودافعاً لدعم قوى إقليمية قيام تحالفات عسكرية منافسة أقل اعتماداً على الخطاب الجهادي، ولكنها بطابع إسلامي عام (حركة حزم، جهة ثوار سوريا). هذا التوحد في جهات وإعلان مشاريع سياسية خفض من فرص الدعم والتسلیح؛ ما أضعف رهان الج جهة الإسلامية على أن تكون مشروعًا وطنياً بديلاً عن الائتلاف، ما قبله انفتاح أكبر في الخطاب من خلال "ميثاق الشرف الثوري"، وما يبدو أنه سيقابله مزيد من تطبيع العلاقات مع الحكومة المؤقتة والائتلاف الوطني، ولكنه ما يعني في الوقت نفسه تراجع العلاقة مع النصرة وفصائل المهاجرين التي يروج بينها التعامل مع سلوك "الإسلاميين السوريين" السياسي باعتباره تنازلات وتآمراً على وجودها في سوريا، ما دفعها لمزيد من المرونة والتخلّي عن طابعها السلفي، لتعقد التحالفات وتصدر البيانات مع التكتلات الإسلامية الجديدة (جيش المجاهدين، الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام، فيلق الشام)، إضافة لدخول المعارك مع القوى العسكرية الصاعدة والمختلفة في غطائها السياسي (حركة حزم، جهة ثوار سوريا).

وفيما يبدو كقانون يحكم توجه الإسلاميين السوريين في مراحل عدة، حين يدفع التراجع الميداني للانفتاح الفكري والسياسي على مستوى الخطاب والعلاقات، فإن سقوط دير الزور وانحصار الثورة السورية في مناطق متقطعة ولا تمتلك موارد ذاتية، مع تمدد الخطر الداعشي، وإعلان النصرة عن نفسها كمشروع إمارة، وإدراك الفصائل المحلية أنها تقع في تهديد وجود حقيقي، بدأ يدفع نحو مزيد من استدراك الأخطاء الأمنية (ملاحقة خلايا داعش النائمة) والقضائية (ملاحقة الكتائب الفاسدة) والإدارية، ومزيد من البحث عن حاضنة سياسية واقتصادية داعمة، وأقل صدامية مع المكونات الإسلامية أو السياسية في الثورة، من خلال اعتماد خطاب سياسي للخارج، وخطاب جهادي للجهات.



سابعاً: خاتمة

يطل المشهد السوري في هذه المرحلة الراهنة على تحالفات رئيسة:

1- دولة العراق والشام التي لم تعد افتراضية، وتمتلك الجزء الأكبر من موارد سوريا المائية والزراعية والنفطية، وتسيطر على محافظة دير الزور وجنوب الحسكة ومحافظة الرقة وبلدات ريف حلب الشرقي (الباب، منبج، جرابلس) وتمتد نحو ريف حلب الشمالي، إضافة إلى مساحات شاسعة من الباادية السورية، ولكن عدم كفاية مقاتليها للسيطرة على مساحات شاسعة وعدم توفر حواضن شعبية، يوفر إمكانية دائمة للانقلاب على هذه السيطرة الهشة، إضافة إلى اشباح التنظيم شبه الدائم مع الفصائل الكردية في جهة الحسكة، التي تسمح باستنزاف التنظيم وتشتيته على المدى البعيد.

بنية التنظيم وأهدافه عراقية، وتدمج المهاجرين في هذه المنظومة الهوياتية المحلية للصراع، وتمثل سوريا بالنسبة له عمّاً استراتيجياً وملادّاً أمّاً وموارد اقتصادية هائلة، إضافة إلى منحها له واقعية وصف الدولة، وتوظف سوريا والمهاجرين في خدمة الأهداف العراقية كمشروع ممثل للسنة العرب مواجه للمشروع الشيعي الإيراني.

2- دولة النظام السوري والذي تأكلت قواته النظامية في الجيش والأمن بعد ثلاث سنين من القتال، ويسيطر على المساحة الأكبر من المنطقة الوسطى والساحل ومحافظة حماة والسويداء، وما زالت تتتوفر له قطع عسكرية بقرب أو ضمن جميع المناطق المحررة، ويعتمد على سلاح الجو والمدفعية في تقدمه الميداني، وعلى الميليشيات الشيعية كقوات مشاة واقتحام بشكل رئيس، بالتزامن مع اعتماده على ميليشيات محلية غير نظامية (قوات الدفاع الوطني وأهمّها)، وعلى الدعم الإيراني في إدارة المعارك؛ ما يجعل أي إرباك إقليمي للدعم الإيراني أو وجود الميليشيات العراقية واللبنانية في سوريا مهدّداً لقدرته على الصمود.

3- الثورة السورية المسلحة، والتي تتتوفر على عناصر قوية تتعلق بالحواضن الشعبية وأعداد المقاتلين الضخمة، ولكنها تعاني من فقدان الموارد الذاتية وعدم توفرها على مشروع إداري



بدليل، وعدم امتلاك استراتيجية قتالية على المستوى القطري، نتيجة عدم التوحد أو التنسيق بين قواها المترفة، والتي يزداد تسرّها نحو الخارج أو نحو المجموعات التي تمثل الجهاد العالمي أو دولة العراق والشام. وشهدت السنة الماضية تقلص المساحات التي تسيطر عليها المعارضة في دمشق وريفها وفي ريف حلب وحمص لصالح النظام، وخسارة الرقة ودير الزور لصالح دولة العراق والشام.

تتوزع مجموعات الثورة السورية المسلحة إلى مجموعات عدّة، حسب انتماءاتها المحلية أو خطابها الإيديولوجي أو علاقتها السياسية، ولكن يزداد تلاقيها وتعريفها لنفسها كفصائل محلية وطنية، مع تقدم وهيمنة المشاريع المنافسة. ويحاول الإسلاميون السوريون توسيع قاعدة التحالف والتعاون مع القوى العسكرية والممثلين السياسيين، لبلورة مشروع بديل ومنافس للنظام من ناحية، ولدولة العراق والشام وإمارة جهة النصرة من ناحية مقابلة. وفي الفترة القادمة، فإن معارك الثوار الرئيسة ستكون لاستكمال تحرير ريف درعا والقنيطرة في الجنوب، ويشكل انسحاب الميليشيات الشيعية فرصة للثوار كي يحققوا تقدماً في ريف دمشق (الغوطة الشرقية وجبال القلمون). أما في الشمال فال الأولوية لمحاولات وقف تقدم النظام في حلب وريفها، ما يوازيه التوسيع غرباً نحو جهة ريف حماة الاستراتيجية، والتي تمثل الرافد وطريق الإمداد الرئيس بالنسبة لما تبقى من النظام في الجهات الشمالية، لتمثل جهة تنافس جديدة ما بين جهة النصرة والجهة الإسلامية وكتلات الجيش الحر، إضافة إلى بدء معركة استعادة المناطق التي سيطرت عليها "داعش" في ريف حلب والرقة ودير الزور.

4- جهة النصرة والجهاد العالمي: عانت جهة النصرة من ضعف وتفكك داخلي الفترة الأخيرة، وتلقت أكبر صدمة وخسارة منذ نشأتها بسيطرة داعش على دير الزور؛ ما أدى إلى خسارة حاضنتها الشعبية الأهم (الشحيل) وخسارة أهم مورد اقتصادي لها. ويأتي إعلان مشروع الإمارة بمثابة استراتيجية مواجهة للضعف الذاتي والتحديات الموضوعية، وإعادة إحياء المشروع عن طريق التأكيد على تمثيل القاعدة والمهاجرين، والتصريف كحاضنة شعبية عبر فرض الجهة نفسها كمرجعية قضائية وأمنية، تبدأ من درعا وريف حلب الشمالي كأول



محطة تجربة للإمارة القادمة، ما قد يمنح الجبهة تحالفات أوسع مع التيارات الجهادية العالمية والمهاجرين، ولكنه يضعف علاقتها مع الفصائل الإسلامية السورية.

ويتيح خروج جبهة النصرة من دير الزور، وتوزع مقاتلتها بين القلمون وحلب ودرعا (حيث ذهب معظمهم)، إمكانية تنشيط هذه الجبهات وتحقيق تقدم ميداني فيها، إضافة إلى تركيز وجود الجبهة وثقلها في مناطقها المحررة، ومحاولة الحصول على خط سيطرة متصل شماليًا ما بين ريف إدلب وريف حلب الشمالي وأجزاء من ريف حماة، ما ينذر بصراعات قد لا تكون خطابية فقط مع الجيش الحر في تلك المناطق.

ولا يبدو أن هذه العلاقة والصراعات والتحالفات بين هذه الأطراف (يمكن أن نتكلم عن تحالف موضوعي بين الطرفين الأولين، ضد الطرفين الآخرين المتحالفين موضوعياً وذاتياً)، يمكن أن تنبثق قريباً عن نصر عسكري لأحد الأطراف، أو يمكن أن توفر أرضية حاضنة لحل سياسي، يحقق أهداف الثورة السورية في الكرامة والحرية والعدالة، ما دامت الثورة السورية، على المستوى الداخلي والإقليمي والدولي، هي ثورة المتروكين.

مُنْتَدِي الْعَلَاقَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْوَلْيَّةِ